وهّاج الشيخ بكّور

الخطف الرحيم

مذكرات أيّام مُقبلة

رواية

Al-Yanabia

وهّاج الشيخ بكّور
الخطف الرحيم
رواية

الخطف الرحيم

وهّاج الشيخ بكّور

الخطف الرحيم

(مذكّرات أيّام مُقبلة)

رواية

جميع الحقوق محفوظة

الكاتب: وهّاج الشيخ بكور

الكتاب: الخطف الرحيم / الطبعة الأولى 2018

لوحة الغلاف ورسمات الفصول للفنانة: ساندرا الأحمد

تصميم وتنسيق: مكتبة هوماكس

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من أجزاء الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة، أو اقتباس للفكرة في العمل السينمائي أو التلفزيوني دون الحصول على إذن خطّي من المؤلّف.

دار الينابيع

طباعة. نشر. توزيع

دمشق- ٠٩٣٢٠٦١٧٣٥

Email: daralyanabeea@gmail.com

إلى حصان طروادة الذي حملني في جوفه إلى أقصى القلاع

إلى سيّدة صبّاري وصبري واصطباري على الدنيا ونفسي

إلى أخي الذي ولدته أمّي، وإلى الآخرين الذين لم تلدهم

إلى من انتظر هذا الخطف بفارغ الحبّ واللهفة

" أثق كلّ الثقة بقدرة الإنسان على إضفاء صفة الرحمة لكلّ ما هو قاسٍ "

وهّاج

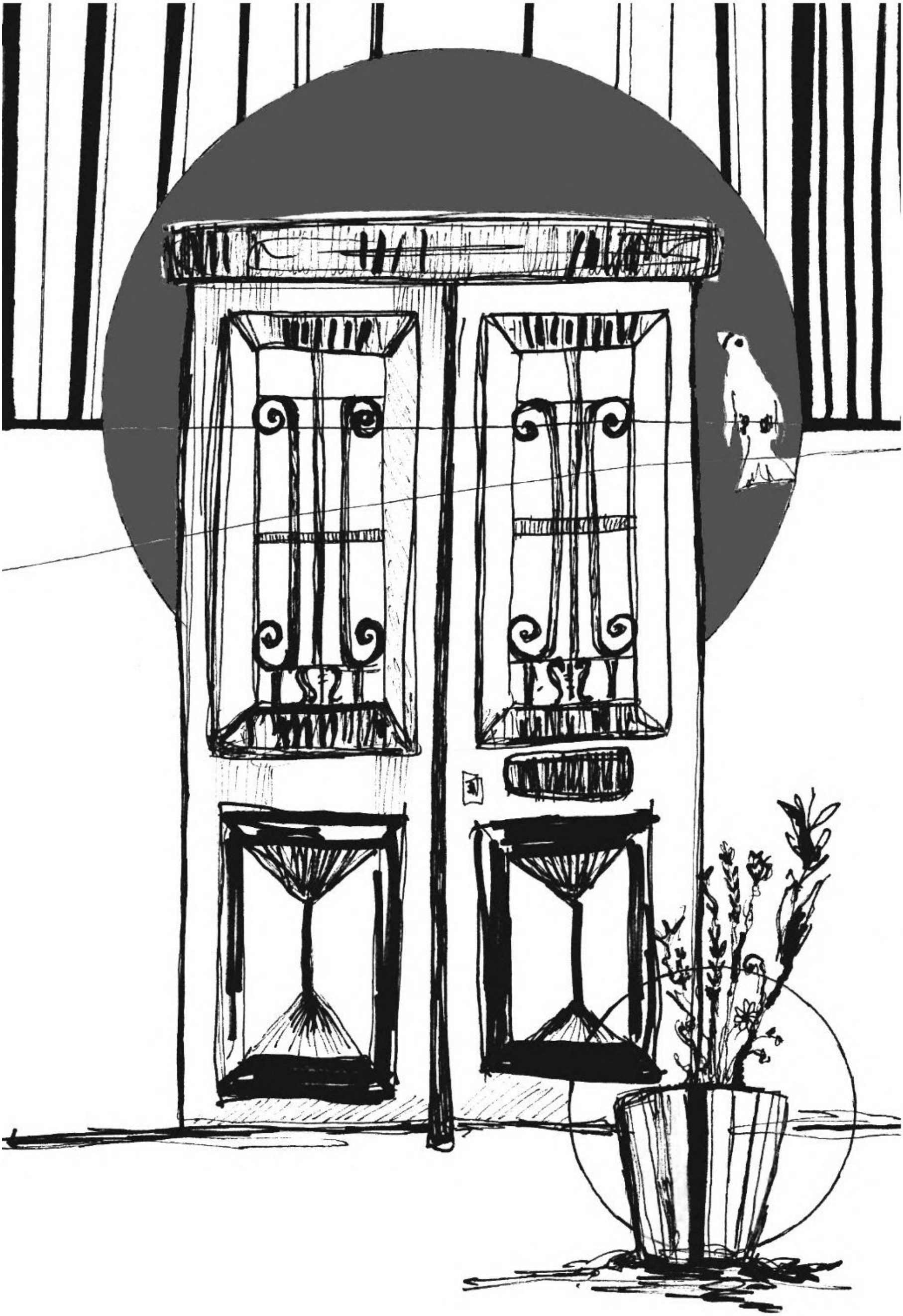

الفصل الأوّل

عزيزي وهّاج!

أنا آسفة جدّاً! لا أحتمل أن يمضي من العمر أكثر ممّا مضى دون أن أخبرك بأنّني آسفة جداً، أكتب لك لأمسح عن زجاج عيني هذا الضباب وأزيح عن عشب صدري هذه الصخرة، أكتب لك كمحاولة أخيرة لمحاصرة الأفكار، وحرق سفن التراجع عن القرار، للمضي قدماً – ولو لمرّة واحدة – دون الالتفات إلى الوراء.

لا زلت أشعر بالشلل الذي هاجمني ذاك الحين دون أن أتصدّى له، بالعجز الذي تمكّن منّي دون أن أعاركه، بحالة السّبات التي كنت فيها عندما أستوجب عليّ النهوض، هل كان يفترض بي حينها أن أكون شجاعة ولم أكن؟ هل كان يفترض ألّا أرضى بذلك ورضيت؟

زنزانة الحزن التي وضعت بها نفسي لا تخرجني منها إلّا الكتابة لك، لطالما كان اعتذاري قسط من دين لا تطالبني باسترداده، لم أتمكّن من كتمان ما سبق كما لم أتمكّن من تقييد كلماتي حين قررت البوح، لذا أرجو أن تقبل اعتذاري عمّا لم يحدث قبل هذا، وعمّا سيحدث بعده.

متى تقرأ رسالتي هذه ستعلم كم وددت لو يصلني إشعار – بطريقة ما – أنّك قد قرأتها، من المحزن ألّا أعرف إن كانت ستصلك أصلاً أم لا، لكن بافتراض أنّها وصلتك وهي بين يديك الآن؛ يسعدني في البداية يا عزيزي أن أهنّئك على خروجك سالماً من السجن الذي حجبك عن العالم في الوقت الذي قد حدثت فيه أمور كثيرة ليس من شأنها محو البؤس عن وجهه لكنها ربما تمحوه عن وجهي.

عليك أن تعلم بأن الكتابة لك بعد كل تلك السنين الطويلة على أحدنا والقصيرة على الآخر تطلّبت مني قوة لا يدري بها سوى خالق القوّة، فالرسائل الورقيّة التي كتبتها في حياتي يمكن عدّها على أصابع يد واحدة، أهمّها رسالة لأمّي في عيد ميلادها الذي لم تحصي بعده كم بلغت من العمر، لذلك أرجو أن تتغاضى عن جهلي لأهمّ مبادئها وأركانها، جلّ ما أعرفه يتلخص بأنّ الذين كتبوا الرسائل الورقيّة استنزفوا كثيراً من المشاعر قبل الوصول إلى خاتمتها، قبل إلصاق قلوبهم عليها كطوابع بريديّة.

لم أبدأ بكتابتها إلا بعد بحث مطوّل عن وسيلة تمكّنني من إيصالها لك، لا أطيق كتابتها ووضعها أمامي، الرسائل – كما تعلم – قنابل عاطفيّة موقوتة يجب التخلص منها بأسرع وقت ممكن.

كان الخيار الأنسب الذهاب إلى الشقّة التي كنت تستأجرها بالقرب من الجامعة، لقد علمت عن طريق الصدفة أنّ صديقك لا زال فيها، طرقت الباب كثيراً لكن دون جدوى.

قبل أن أعود أدراجي متأسّفة استوقفني شابّ لطيف البنية والصّفات بدا أنّه قد أنهى للتوّ دوامه في الجامعة، بيده اليمنى مسطرة تشبه حرف "T"، وبيده الأخرى أوراق ملفوفة بشكل حلزونيّ وحقيبة لحاسبٍ شخصيّ على ما أظنّ، سألته إن كان الباب الذي طرقته عدّة مرّات قبل قدومه هو الباب المقصود فأكّد لي ذلك معرّفاً عن نفسه.

عرّفته عن نفسي أنا أيضاً بعد أن هدأت الحفلة التي كان يقيمها الصداع في رأسي لكثرة التفكير، أخبرته بالغرض الذي دفعني للقدوم إلى هنا قبل السفر، تشكّرت شقيق صديقك لأنّه لم يرفض تسليم رسالتي لك حين تخرج من السّجن سالماً.

اتّجهت بعدها إلى أوراق لا يشبه لونها أيّامي، موضوعة على طاولتك الخشبيّة المجاورة للنافذة المطلّة على الشارع الواسع وزاوية الحديقة القريبة.

اعتدتُ ترتيب تلك الطاولة ومسح الغبار عنها رغم أنّها لم تكن بحاجة إلى ذلك بقدر ما كانت بحاجة إلى الفوضى الخلّاقة التي اعتادت عليها قبل أن تهجرها.

اخترت قلماً من أقلامك وتقصّدت أن يكون حبره سائلاً، فلا أريد لرسالتي أن تكتب بجافّ، ولو كلّفني خياري بقعاً سوداء على الكفيّن والثياب.

بدأت الكتابة مباشرة، دون استخدام مسودّات أو كتابة الأفكار الرئيسيّة التي سأدرجها على ورقة صغيرة، لا طاقة لي على رمي المحاولات الفاشلة في سلّة المهملات، بدأت دون التفكير بالعواقب الوخيمة التي ستتبع كلينا بعدها.

لقد اعتزلت العالم بشكل أكبر ممّا كنت عليه بعد الحادثة التي افتعلها أبي واضعاً لنفسه مبرّراً للانفصال عن أمّي، والسعي وراء عشيقته الحقيرة رغم أنّه لم يكن بحاجة إلى التبرير، لقد ضيّق الخناق عليها حتّى تطلب منه الطلاق فيهرب من الواجبات المترتّبة عليه ملقياً مثاقل الهمّ عليها لتموت كمداً.

حتّى ذلك الحين كانت أمّي آخر أسباب الحياة بالنسبة لي، الشخص الوحيد الذي يعرف سبب ابتعادي عنك مرغمة، وجميع الأمور السيئة التي تلت ذلك.

موتها يشبه إلى حدّ ما فراقي عنك بالقسوة، وبعمق الفجوة التي أحدثها في الروح، الفرق الوحيد بينهما هو أنّني لم أستطع أن أحكي عنها لأحد فأجد المواساة الحقيقيّة، بينما كنت أحكي لها عنك فأجد كلّ المواساة، أظنّ أنّ الفرحة ستملأ قبرها إن علمتْ أنّني أكتب لك الآن، وأنّني أجدت طبخ (الملوخيّة) كما تطبخها أمّك.

أعتذر عن الإطالة قبل البدء بموضوع الرسالة الرئيسيّ، أخشى أنّك مضطرّ لاحتمال ثرثرتي هذه المرة؛

السنة الفائتة ذهبت إلى طبيب أسنان تقع عيادته بالقرب من منزل أخي أيهم، حيث أقيم مع عائلته الصغيرة المكوّنة من زوجته وابنهما الوحيد، بعد تسجيل دور عند الممرّضة الجالسة وراء طاولة خشبيّة شاهقة بالكاد تستطيع رؤية رأس من يجلس خلفها، جلست بين المنتظرين على كرسيّ يقابل باب العيادة مباشرة.

عندما اقترب دوري دخلت امرأة ممشوقة القوام، شعرها بنيّ داكن قليل التجعّد، عيناها ملوّنتان، لم أستطع في البداية معرفة إن كانتا خضراوين أم زرقاوين، ثمّ تبيّن بعد نزعها النظّارات الطبيّة أنّهما خضراوان تميلان إلى الزرقة قليلاً، كان من السهل جدّاً التعرّف على الطبقة التي تنحدر منها تلك المرأة، والتي لا أتجرّأ على تخيّل نفسي قريبة منها.

مفتاحٌ لسيّارة فخمة وهاتف في يدها يتفوّق بذكائه على ذكاء ابن أخي الذي استمدّه بالكامل من أمّه، حقيبة جلديّة باهظة الثمن لا أظنّ أنّها قد ابتاعتها من متجر الألبسة الأوروبيّة المستعملة الذي اعتدت شراء ثيابي منه، بثمن الحذاء الذي تلبسه أستطيع العيش شهراً كاملاً دون مطالبة أخي بحصّتي من إيجار المنزل الذي تركته لنا أمّي رحمها الله.

كانت تجرّ وراءها طفلة تدفع كلّ من يراها إلى التصديق بأنّ الملائكة قد تملك قدمين نحيلتين، خجولة جدّاً بالكاد رفعت رأسها عندما ألقت أمّها تحيّة الصباح، شعرها طويل وكثيف يلمع بشكل ملفت للنظر حين تسقط عليه أشعة الشمس القادمة من النوافذ

الزجاجيّة الكبيرة لغرفة الانتظار الواسعة، لون عينيها كان قريباً من لون شعرها، لكنّ شعرها أفتح بدرجة إن استطاع الناظر ملاحظة ذلك، البكاء جعلهما منتفختين قليلاً وأمال بياضهما إلى حمرة خفيفة، يظهر على زوج خدّيها أثر لدمع قد جفّ لتوّه كساقية حقل لم يزره الشتاء منذ سنوات.

رفعت الصغيرة رأسها، رمقت كلّ الجالسين على المقاعد بنظرة استكشافيّة، توقّفت للحظة عندي ربّما لأنّني كنت الوحيدة التي أنظر إليها بتمعّن بينما لا يكترث البقيّة، تابعت بعد ذلك نظرتها البانوراميّة إن صحّت التسمية، وأخفضت رأسها بعدها كما كان.

لم يسبق لي أن رأيت وجهاً يبعث على الراحة كوجهها، يبرز منه الأنف بشكل لطيف فوق شفتين بالكاد تنشقّان عند الكلام بين وجنتين طريّتين، يصل طولها إلى خصر أمّها إن خلعت الأخيرة الكعب طبعاً.

لا زلت فاشلة في إخفاء انجذابي نحو الأشياء المميّزة فشلاً ذريعاً، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر انجذابي نحو الشبه الكبير بينك وبين الطفلة، لحسن الحظّ أنّ الجميع كما أخبرتك آنفاً كان غير آبه بدخول طفلة تشكو ألم أسنان برفقة أمّها.

وددت لاحقاً لو كنت مثلهم، لو أنّني تصفّحت المجلات الطبيّة الموضوعة على الطاولة أمامي أو استمتعت بخدمة الإنترنت المجانيّ المتاح للمنتظرين بدلاً من التحديق بها.

قلبي كان يدقّ آن ذاك كما لم يفعل منذ آخر مرّة قبّلتك فيها، والتي لم أقبّل بعدها إلا جبين أمي وصورنا التي لا زالت بهيّة حتّى في أشدّ لحظات حزني المتزايد تبعاً للزمان والمسافة التي تفصلني عن جزئها الآخر.

حدّقت بالطفلة بينما كانت أمّها تعطي الممرضة المعلومات اللازمة وتسألها عن الزمن الذي ستقضيه منتظرة قبل أن تدخل غرفة الطبيب كونها مشغولة جداً وعليها العودة إلى العمل بأقصى سرعة ممكنة.

مرّرت نظري من الأعلى إلى الأسفل كماسح ضوئيّ يتفحّصها، تمعّنت في أدقّ التفاصيل وأصغرها، لاحظت الشبه الكبير بينها وبين الدمية الصغيرة التي تمسكها باليد التي لا تمسك بها يد أمّها، كأنّ أحداً ما قد أعطى صورتها لصانع الدمى كي يصنع لها شبيهة.

أستطيع الآن وفي أيّ وقت يطلب منّي أحدهم أن أصف له ذلك المشهد كاملاً، استحضاره كما لو أنّه قد حدث للتوّ، ذلك المشهد الذي سجّلته عينيّ طفا على مستنقع ذاكرتي الذي كان أمر جفافه وشيكاً لولاها.

لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال اعتبار ما قبل ذلك الموقف كما بعده، كلّ الصفات التي ذكرتها لك آنفاً وأكثر قادتني لتأكيد شكّي الذي لم يخب يومها، والذي قطعه اليقين المتمثّل بطلب الممرّضة اسم الطفلة الثلاثيّ.

طرق باب أذني اسم أبيها لتكون تلك الطفلة ابنتك يا عزيزي، أتمنّى أن تتقبّل تهنئتي المتأخرّة كثيراً بولادتها، ابنتك التي لها ما لك من عينين لامعتين تصلحان لأن تكونا مرآتين، أنسى اسمي ولا أنسى كيف كنت تنظر لي بهما ذات يوم.

أتت ابنتك وجلست على المقعد الشاغر بجانبي وتبعتها أمّها لتجلس بجانبها، ارتجفت يدي حتّى اعتقدت أنّها ستصاب بالشلل قبل أن تصل إلى شعرها، لم أستطع منع نفسي من تمرير يدي به ورفعه عن وجهها لأشعر بذات الشعور الذي كان يعتريني عندما كنت أرفع شعرك المتدلّي على وجهك.

سألتها عن اسمها لأتحقّق ثانية ممّا سمعته، فأجابت بنبرة المرتجف برداً رغم أنّ الطقس كان معتدل: " اسمي مريم ".

إنّه الاسم الذي اخترناه لطفلتنا الأولى، الاسم الذي أعادني إلى الوراء كثيراً مع زفرة أطلقتها كمشنوق ردّه إلى الحياة انقطاع الحبل قبل موته بلحظات، ابتسمت لها حين كادت دمعة أن تفسد ثباتي المهدّد بالاختفاء.

أخبرتها أن اسم مريم من أجمل الأسماء على الإطلاق، ولو كنت قد رزقت بطفلة جميلة مثلها لأسميتها مريم أيضاً، ثمّ عدت لأسألها مازحة بعد أن تمالكت نفسي أكثر: " هل هذا البكاء كلّه من ألم أسنانك يا مريم أم أن هنالك أحد ما قد أزعجك؟! "

هزّت رأسها وهي تسند وجع أسنانها بباطن كفّها، فتدخلّت أمّها بغضب طفيف قائلة:" هذا كلّه من أكل الشوكولاتة! أيقظني نحيبها باكراً، فنهضت إلى المطبخ وأشربتها كأس حليب دافئ، ثمّ أعددت لها فطوراً بسيطاً كي أتمكّن من إعطائها دواء مسكّناً للألم، راجعت جدول أعمالي لإيجاد وقت مناسب يسمح باصطحابها إلى طبيب الأسنان، لقد أرشدني الجميع إلى هذا الطبيب بحجّة أنّه الأفضل هنا، لكن إن توجّب عليّ الانتظار كثيراً سأبحث عن طبيب آخر، فالممرضة لم ترض أن تجعل دوري قبل الآخرين ".

أجبتها: " ربما سيطردها الطبيب إن شكاها له أحدهم، ما رأيك أن أعطيك دوري إنّه التالي؟ "، فردّت على ذلك العرض بلهفة: " حقّاً؟! سأكون ممتنّة لك جداً ".

" بالطبع سأفعل، ليس هنالك ما ينتظرني إن تأخّرت أكثر"، قلت ذلك وأنا أمسّد بأصابعي كتف مريم، لا تعلم زوجتك أنّني ما كنت لأفعل ذلك لولا إحساسي بألم مريم.

أردت خلق حديث معها، فقلت: " إنّها تشبهك كثيراً! "، نفت ذلك باستغراب: " لا، على العكس تماماً، إنّها لا تشبهني، بل تشبه والدها، تكاد أن تكون نسخة طبق الأصل عنه ".

على غير العادة ضبطت ردّة فعلي، ولم أفصح عن وضوح ذلك بالنسبة لي منذ دخولها، قاطع حديثنا القصير اتصال وارد إلى

هاتفها، فذهبتُ إلى الممرضة لأخبرها بأنّني سأمنح الطفلة دوري.

بينما زوجتك منشغلة بالهاتف كنت أسترق النظر بين الحين والآخر لوجه الطفلة البريء جداً، النظر إلى وجهها والتمعّن به جعلني أشعر بالراحة ذاتها التي كنت أشعر بها عندما كنت أنظر لوجهك، عندما كنت أتأمّله لساعات دون ملل.

بعد عشر دقائق من الانتظار الذي رغبت لو دام أكثر، أتى دور مريم، فصاحت الممرضة باسمها، أمسكت زوجتك بيدها وقادتها إلى غرفة الطبيب.

كان صوت الآلة المزعج التي يستخدمها الطبيب يصل بوضوح إلى غرفة الانتظار، كما كان يصل صوتُ بكاء مريم حين تتوقّف الآلة، فتمنّيت لو أنّني أستطيع أخذ ألمها مقابل دوري الذي أعطيتها إيّاه.

قبل أن أسمع صوت فتح باب غرفة الطبيب فكّرت مليّاً بما سأفعله حين تخرج، نظرت إلى الباب بحماس شديد لرؤية وجه مريم مجدّداً.

فتحت مريم الباب، ووقفت تنتظر حتّى خرجت أمّها وشكرتني ثانية، واتّجهت بعدها نحو الباب الخارجيّ للعيادة ملوّحة بيدها التي وددت تقبيلها.

إلى جانبي تماماً بالفراغ المحصور بين مقعدي والمقعد الذي جلست عليه مريم وجدت الدمية التي كانت معها، أمسكت بها وضممتها إلى صدري، شممت رائحتها، ثمّ وضعتها في حقيبتي، في البداية نويت الاحتفاظ بها، لكن خشيت أن تكون دمية مريم المفضلة فتحزن لإضاعتها.

ذهبت للممرضة وأخبرتها أنّ الطفلة التي أعطيتها دوري قبل قليل نسيت لعبتها على الكرسيّ، وطلبت منها أن تعطيني رقم هاتف أمّها كي ألحق بها وأعيد لها الدمية، لم تمانع الممرضة وأعطتني إيّاه دون تردّد، المضحك المبكي هو أنّ مريم تشبهك حتّى في نسيان الأشياء وإضاعتها.

اتصلت بزوجتك وأخبرتها أنّني وجدت دمية مريم، فشكرتني هذه المرة لأنّها لم تتوقف عن البكاء منذ أن فقدتها، سألتني إن كان بإمكاني الاحتفاظ بها حتّى المساء، لأنّه يتعذّر عليها العودة فوراً لاستردادها.

دعتني زوجتك مساء ذلك اليوم إلى تناول العشاء في مطعم لم أكن أتصوّر أنّني سأجلس به قبل موتي، بالطبع لم أفوّت فرصة كهذه لرؤية مريم مرّة أخرى، والتقرّب من زوجتك التي أبدت لطفاً كبيراً في التعامل معي، ارتديت أجمل ما تحتويه خزانتي، واستعرت حذاء زوجة أخي دون إذنها، ذهبت إلى المكان الذي اتفقنا أن نلتق به قبل الموعد بنصف ساعة، وصعدت معها حين أتت بالسيّارة.

كانت سعادة مريم لا توصف باستعادة الدمية، فأخبرتني أمّها أنّك أنت من أحضرتها كهديّة في آخر حفلة عيد ميلاد أقمتها لمريم، وذكرت أيضاً في سياق الحديث الذي رافق تناولنا طعام العشاء أنّ مريم قد تعلّقت بك أكثر من تعلّق أي طفلة بوالدها، وساءت حالتها النفسيّة نتيجة غيابك المفجع، فترتّبت عليها مسؤوليات كبيرة لا تملك من الوقت ما يكفي لها أبداً.

عملها خلال النهار في الشركة وعودتها مرهقة في المساء يزيدان الأمر صعوبة، وأمّها المتقدمة في السنّ والمرض، بالكاد تستطيع قضاء حوائجها بنفسها، لم تستطع زوجتك إيجاد مربّية جيّدة لأنّ المربّية التي ستقبل العمل في منزلها سيتوجّب عليها الاعتناء بطفلة صغيرة وسيّدة عجوز.

في تلك الأثناء ودون أن تعلم قدّمت لي زوجتك فرصة على طبق من ذهب للبقاء قريبة من مريم، فكذبت عليها وأخبرتها أنّني عملت سابقاً كمربّية أطفال لكنّني توقفت عن العمل لرعاية أمّي التي تردّت حالتها الصحيّة قبل أن توافيها المنيّة.

تفاجأت زوجتك بسماع ذلك، وعرضت عليّ العمل كمربّية في منزلها فوراً، اتفقنا على الراتب، والأوقات التي سأتواجد فيها بالمنزل، وغيرها من الشروط والإيضاحات، كأن أعمل لشهر واحد فقط، إن استطعت كسب رضا أمّها ومحبّة مريم يمكنني الاستمرار بالعمل، وحين تضطرّ للسفر والنوم لعدّة أيام خارج

المنزل سأحصل على زيادة مناسبة إن بتّ في منزلها حتّى إيابها، كما سيكون لي غرفة خاصّة إن جرت الأمور كما يجب.

لقد كان العمل مريحاً، واستطعت أن أكسب خلال أيّام قليلة رضا الجميع، فالجدّة العجوز كانت بحاجة لمن تروي له حكايات سفرها من مدينة لأخرى ومن بلد لآخر، مع زوجها الذي توفيّ بعد فترة قليلة من حفل زفاف ابنتهما، ومريم كانت بحاجة لملء الفراغ الذي خلّفه غيابك، أمّا الزوجة فقد كانت بحاجة للتخلص من شعورها بالتقصير تجاه الاثنتين.

الجدّة أخبرتني أنّها لم تكن راضية على زواجك من ابنتها مطلقاً، لكنّ ابنتها – سامحها الله – كان رأيها كرأي والدها فقبلت بك زوجاً لها، على أيّة حال يجب أن تتحمّد الله كثيراً لأنّني صبرت على شتائمها لك أمامي كلّما انزعجت من ابنتها، أو كلّما دار حديث فيه ذكرك.

لولا صبري الأيّوبيّ لكنت ارتكبت جريمة بحقّها، وانتهى بي الحال في السجن أيضاً، ربما لو كان هنالك احتمال ضئيل لأن يضعوني في سجن أكون فيه قريبة منك أو يمكنني رؤيتك لفعلت ذلك دون تردّد.

مريم كانت تسأل كلّ يوم عن موعد عودتك، تحدثني عن الألعاب التي اعتدتما لعبها سويّة وعن برامج الأطفال التي تفضلان مشاهدتها، نسجت لها قصصاً من خيالي كي أشغلها عن السؤال،

لقد أحببتها وتعلّقت بها كأنّ الله الذي ربط حبال المودة بين النّاس جعل أمتنها بيننا.

منذ رؤيتي لها في العيادة عاد بي الشعور لأوّل مرّة رأيتك فيها، بالطبع أنت لا تذكرها أبداً، رغم أنّني حاولت تذكيرك بها، يوم اصطدم كتفك بكتفي في الجامعة، كدت أن ترميني أرضاً عندما كنت تسير بسرعة نحو قاعة المطالعة، وبدلاً من الوقوف لتقديم الاعتذار أو إلقاء التحيّة على أقلّ تقدير تابعتَ طريقك ولم تدر ظهرك، يومها ظنّت صديقتي أنك شخص أبله ومغرور وكانت ستلحق بك لتوبّخك لولا أن منعتُها، كان من الواضح أنّك لم تتعمّد ذلك أبداً.

يومها كنت ترتدي بنطالاً أبيضاً وقميصاً كحليّاً، شعرك كما دوماً يعكس فوضاك ويلغي احتمال وجود المشط أمام مرآتك، لحسن الحظّ لم أكن أحمل بيدي كتباً أو محاضرات، لأنّني لو أسقطتها كنت سأضطرّ حينها لالتقاطها بمفردي عكس ما روّجته المسلسلات والأفلام السينمائيّة، بقيت بعدها أفكّر في أنّك لم تصطدم بكتفي فقط، بل اصطدمت بقلبي وأوقعته أرضاً في كل مرّة رأيتك فيها بعد ذلك ولم تعرني اهتماماً.

بعد أشهر من العمل في منزلك، أصبح بإمكاني الخروج مع مريم في نزهة دون طلب الإذن من جدّتها، إحساس الطفلة بوجود أمّها كان شبه غائب، لم تكن تفتقدها أبداً، فجلّ ما تفعله لها هو إيصالها إلى المدرسة صباحاً، وفي الكثير من الأحيان تكون مشغولة،

فأذهب بكلّ سرور لإحضارها من المدرسة، كانت تترك لي المال كي أستقلّ سيّارة أجرة، لكن أنا ومريم فضّلنا المشي طوال طريق العودة، وتناول الآيس كريم بالمال الذي وفّرناه.

تمكنّت من معرفة جزئيّات ما حصل لك بالاستفهام عن أشياء لها علاقة بك، لقد بحثوا عنك بدايةً في المستشفيات، ثمّ ظنّوا أنّ أحداً ما قام باختطافك، لكنّهم لم يتلقوا أيّ اتصال يرشدهم إلى ذلك، فأصبحت الشكوك تدور حول دخولك السجن عن طريق الخطأ أو بتهمة زائفة.

مدير أعمال شركتها التي تراجعت أرباحها نتيجة تفاقم الحرب بعد أن كانت – كما تعلم – من الشركات الرائدة في مجال التجارة والتسويق، قد بحث عن أمهر المحامين ليتوكّلوا قضيتك، جميعهم رفضوا على حدّ زعمه، والحجّة أنّهم عرفوا بطريقة ما أنّك متّهم بقضيّة لا يمكن لأحد الاقتراب منها.

لم أصدّق حرفاً تفوّه به، استشعرت كذبه في كلّ مرة قال فيها لزوجتك أنّ بحثه عن حلّ للمشكلة التي وقعت فيها لا زال مستمراً، حاولت بشتّى الوسائل ألّا ألقي بالاً للتفاهات التي تكلّم بها حين كان يأتي لزيارة زوجتك بحجّة مناقشة بعض الأمور المتعلّقة بالشركة.

ما حصل مؤخّراً دفعني للتفكير بشكل جدّيّ بالسفر، وضع البلاد أصبح أخطر ممّا كان عليه، زوجتك قرّرت العودة إلى لبنان، حيث يمكنها إعادة الشركة إلى سكّة الأرباح، فقرّرت بدوري

إنهاء ما بدأته، والسفر بالمال الذي جمعته إلى أوروبا على سبيل اللجوء.

لم أفكّر بالطريقة التي سأسافر بها أو بالعوائق التي ستظهر، فكّرت بمريم فقط، أكثر ما يعنيني في هذه البلاد، والشيء الوحيد المتبقّي لي منك والذي أستطيع أن أكون منه قريبة دون حرج، إنّها أكثر شخص في هذا العالم يحمل صفاتك وطباعك الغريبة.

لم أخبر أحداً بشأن سفري، أخي لم يعد يهتمّ لأمري كثيراً بعد أن بدأت العمل في منزلك، ارتاح كثيراً لانخفاض وتيرة المشاكل بيني وبين زوجته، وسيرتاح أكثر عندما أغرب عن وجهه نهائيّاً.

ضعفت أمام ابنتك، فأخبرتها أنّني أنوي السفر بعيداً دون عودة، وأنّها لن تتمكن من رؤيتي ثانية بعد أن تنتقل مع والدتها للعيش في لبنان، فلا أستطيع السفر معهم لعدّة أسباب تعلمها.

تحطّم قلبي كزجاج من النوع المحليّ الرديء عندما أجهشت مريم بالبكاء، وترجّتني ألّا أسافر، ضممتها إلى صدري حتّى بلّل دمعي شعرها، لن أكون غبيّة لارتكاب نفس الخطأ مرّتين، بالطبع تفهم قصدي.

كنت متأكدة تماماً أنّ مريم لن تمانع إن عرضت عليها السفر معي بعيداً، بغيابك وانشغال أمّها وتقدّم جدّتها في السن كنت الشخص الوحيد الذي يهتمّ بها ويقدّم لها العطف والحنان المفقودين، ممّا سهّل من تعلّقها بي، فلولا ذلك لما استطعت أن

أقترب منها لهذا الحدّ دون أن تضجر مني زوجتك، أو تلاحظ أنّني قد أخذت مكانها في قلب مريم، إنّها مطمئنة جداً لوجود أفضل مربيّة على الإطلاق في منزلها.

بعد أن اتّخذت القرار بأخذ مريم معي رفيقة لي في سفري وطفلة تكبر معي في الغربة، اتّجهت لشخص أثق به ولا يمكن أن يرفض لي طلباً، ساعدني في إعداد جواز سفر لمريم دون الحاجة لوجود وليّ أمرها، وأرشدني إلى آخر يمكنه مساعدتي على السفر بطريقة غير شرعيّة إلى تركيا مبدئيّاً، أخبرته أنّني مستعدّة لدفع زيادة من المال كي تكون رحلتنا أقلّ خطورة وأكثر راحة وأماناً.

لا أخاف على نفسي بقدر ما أخاف على مريم، أن يصيبها مكروه أو يلحق بها أذى بسببي، فأندم على ما فعلته أكثر من ندمي على ما لم أفعله، ثق تمام الثقة أنّني سأقوم بكلّ جهد يؤدّي لسعادتها.

أستطيع تخيّل وجهك كما لو كان أمامي الآن، تصوّر عينيك منتقلة من كلمة لأخرى ومن سطر لآخر، لكنّني لا أستطيع توقّع ما سيحدث بعد انتهائك من القراءة، صدّقني لم يكن بمقدوري ألّا أفعل هذا، عليك أن تعذر أنانيّتي التي دفعتني للاحتفاظ بما ليس لي.

عزيزي وهّاج! لا يمكن أن أشطب من ذاكرتي ما قد غيّرته في حياتي، كيف جعلتَ كلّ ما فيها جميلاً، الإحساس بالأمان حين كنت أمشي بجانبك أو أجلس قبالتك لا يمكن الإحساس به مع

شخص آخر، مشاعري كلّها كانت نوعيّة لك أنت، لم أستطع الحبّ بعدك، لا أظنّ أنّ أحداً سيعنيه أمري كما عناك، لذلك تابعت طريقي متعالية على الجراح، منتظرة فرصة واحدة تجمعني بك لأشرح ما عجزت عن شرحه يوماً ما، وبعدها سيتابع كلّ منّا حياته، ستعود لأسرتك الرائعة وأعود للجحيم الذي ملّني أكثر ممّا مللته.

في ختام رسالتي أتمنّى أن تكون بخير حين تتسلّمها وبعد، وأطلب منك إن جاز لي الطلب بعد أن اطّلعت على ما جرى أن تغفر لي رحيلي عنك في الماضي، لم تمنحني الحياة فرصة لتفسير ذلك، كم على الإنسان أن يعيش ليقتنع أنّ الرحيل عن كلّ ما يحبّه أمر لا بدّ منه؟!

كما أرجو أن تسامحني على رحيلي مجدّداً، هذه المرّة مع ابنتك ومجموعة لا بأس بها من الأسباب غير المقنعة.

سيلين

الفصل الثاني

لم ينتظرني ما انتظر الآخرين، كلّ الذين تمّ الإفراج عنهم بموجب العفو العام الذي أصدره في تلك السنة كانت الفرحة لا تفارق وجوههم التي صبغتها جدران السجن بلونها الرماديّ الباهت، أستطيع وأنا على مقربة منهم لمس أجنحتهم أو استعارتها للطيران على ارتفاع سعادة شاهق، أو الوقوف على شرفات أعينهم والنظر منها إلى الأمل الجديد.

بحثت عن الشعور المناسب في تلك اللحظة، فلم أجد إلّا امرأة في أواخر عقدها الثالث، تقف قرب سيّارة فخمة سوداء اللون رباعيّة الدفع، تراقب وجوه المُفرج عنهم، باحثة على ما يبدو عن أحد ما، اتّجهت نحوي مباشرة حين رأتني كما لو أنّها وجدت ضالّتها، تسارعت خطواتها شيئاً فشيئاً حتّى أصبحت قريبة منّي كفاية لمدّ يدها ومصافحتي: "الحمد لله على سلامتك أستاذ وهّاج!".

ببطء شديد كما لو أنّنا نصوّر مشهداً لفيلم سينمائيّ رفعت يدي لأصافحها، بضعة ثوان مرّت قبل أن أردّ عليها بفم جافّ: "سلّمك الله".

كان الرهان بيني وبين نفسي لا يزال قائماً على أنّها ودّت معانقتي حين اقتربت منّي في تلك اللحظة لكنّ شيئاً ما قد منعها،

كلّما أردت أن أسألها عن ذلك أتذكّر المظهر القبيح الذي كنت عليه، والذي يشبه إلى حدّ كبير مظهر الإنسان البدائيّ، فأتناسى أمر الرهان، وأقنع نفسي بأنّ أمّي لو تمكّنت من القدوم إلى هنالك لن تعانقني لعظيم بشاعتي.

سحبت يدها من يدي بعد أن تأكّدت أنّني قد نسيتها عن غير قصد، وسألت بلطف ليس غريباً عن امرأة بأناقتها: "هل أنت بخير يا أستاذ؟!".

استعدت شيئاً من انتباهي لأجيبها: "أنا بخير، بخير الحمد لله، شكراً جزيلاً لك".

أخفضت رأسي ممسكاً بشعري الذي طال أكثر من المعتاد بالنسبة لي ولمن عرفني قبل دخول السجن، كنت أبحث عن طريقة أنهي بها الحديث لأبدأ البحث بعدها عن طريقة أصل فيها إلى المنزل، فاستغلّت سكوتي وعادت لتسأل: "هل نستطيع الذهاب الآن؟".

كلّ ما سبق كان يمكن اعتباره عاديّاً حتّى قالت هذه الجملة، لم أعتقد ولو لبرهة أنّها كانت تقف جانباً لأجلي، ظننت أنّها جاءت للقاء شخص آخر وصادفتني فألقت التحية كرماً منها ولطفاً، ثمّ ظننت أنّها كانت تعرفني لذلك أخفضت رأسي وحاولت تذكّر وجهها إن كان مألوفاً أم لا، نظرت لها وكلّ ما في وجهي يسأل: "هل حقّاً أنت هنا لأجلي؟!".

ربّما من المبالغة القول بأنّني خشيت أن تكون تلك المرأة زوجتي ولم أستطع تذكّرها لارتدائها نظّارات شمسيّة وامتلاكها سيّارة جديدة، لكنّ زوجتي – على ما أعتقد – أكبر منها سنّاً، ولا تجيد المشي بالحذاء ذو الكعب العالي.

إجابتها على سؤالي زادت من استغرابي في الوقت الذي توقّعت أنّها ستنقصه: "لا أحد هنا ينتظرك سواي منذ ساعات، هيّا بنا سأخبرك بكلّ ما تودّ معرفته في السيّارة".

" أظنّك تقرّين بأنّه لا خيار أمامي سوى الذهاب معك، عادة لا أحبّ كوني غير مخيّر، لكن هذه المرّة لا بأس بذلك "، أجبتها وتبعتها إلى سيّارتها التي كان من الممكن قلي البيض على مقاعدها الأمامية، سبقتني يدها إلى مفتاح التحكم بمبرّد الهواء، وبدأت بعد ذلك القيادة والكلام معاً:

" أنت لا تعرف من أكون، ولكنّني أعرف تمام المعرفة من تكون، لقد انتظرتُ هذه اللحظة كثيراً حتّى أتعرّف عليك شخصيّاً، كان من المغري جدّاً الاقتراب من الشخصيّة التي اختبأت وراء رواياتي المفضّلة، لم تسنح الفرصة لمقابلتك قبل هذا، حضرت جميع الندوات والأمسيات الأدبيّة التي أقمتها تقريباً، لكنّني لم أزاحم الناس المتجمّعة حولك لأحصل على صورة تذكاريّة وبضعة كلمات لطيفة.

عندما كنت في المرحلة الثانويّة، بينما كان زملائي في المدرسة منجذبون للكتب والروايات الرومانسيّة البحتة التي تشدّ

المراهقين، انجذبت بكامل حواسي إلى مقالاتك الأدبية وكتاباتك العبثيّة في زوايا الجرائد والمجلات، بشراهة كبيرة قرأت ما كتبته مهما كان نوعه أو تصنيفه، لدرجة أنّني ألصقت القصاصات الورقيّة التي تحمل اقتباسات مميّزة لك على كامل جدران غرفتي، ولا تزال معظمها بألوانها المختلفة صامدة حتّى الآن.

إنّها اللحظة التي طال انتظارها بالنسبة لي، أمّا بالنسبة لك فلا أظنّ أنّها ستكون كذلك بعد أن نتوقّف في مكان ما لأحكي لك بكامل انتباهي عمّا حصل لعائلتك".

ركنتْ السيّارة على يمين شارع مرصوف بالأشجار الظليلة، وعادت لمتابعة الكلام:

"من الصعب جداً إيجاد نقطة للبدء منها، لكنّني سأبدأ من ذلك اليوم الذي انقطعت بتاريخه أخبارك، ولم أعد أجد لك أيّ منشور أو مقال جديد، قلقت عليك كثيراً كما لو كنت فرداً من أفراد أسرتي.

بحثت بحذر عن شخص قريب منك لأطمئنّ عليك، فكان هذا الشخص هو (حسن) صديقك المقرّب الوحيد المتبقّي في البلاد، تواصلت معه واجتمعت معه في كلّ إجازة أتاها، أعطاني التفاصيل التي كانت تنقصني لمعرفة حقيقة ما حصل معك، والتي تهمّني لمتابعة وضعك.

حسن كان ينقل لي ما يدور داخل بيتك أحياناً؛ زوجتك طلبت من مدير أعمال شركتها توكيل محام ماهر، لكن حسن لم يكن يشعر بالراحة تجاه مدير الأعمال، وزوجتك مصرّة على إبقائه لأنّ أباها قام بتوظيفه منذ تأسيس الشركة، وقدّم جهود وخبرات لصالح العمل لا يمكن نكرانها أبداً، أجمع المحامون وأصحاب الشأن الذين تم سؤالهم أنّ تهمتك خطيرة جدّاً ولا يتجرّأ أحد على الاقتراب منها.

ابنتك مريم امتنعت عن الذهاب إلى المدرسة لفترة قصيرة، قبل أن تأتي لها أمّها بمربّية جيّدة، ساعدت على تحسين حالتها النفسيّة، أمّا زوجتك فقد حاولت جاهدة إبقاء نفسها هادئة في ظلّ الخسارات الكبيرة المتتالية، في الحقيقة لم يكن سهلاً أبداً أن توازن بين عملها وبيتها بعد غيابك التّام والمفاجئ.

تحسّنت حالة مريم كثيراً بعد قدوم المربّية، فقد كانت تفعل ما كنت تفعله مع مريم، توصلها إلى المدرسة، ثمّ تعود لأخذها إلى المنزل عند انتهاء الدوام، تساعدها في أداء واجباتها وفروضها، تشاركها اللعب وتشاهد معها برامج الأطفال المسلّية.

بعد عام تقريباً، حدث تفجير إرهابيّ بسيّارة مفخّخة قرب باب المدرسة التي تدرس فيها مريم، بالتزامن مع خروج الطلاب، التفجير كان مروّعاً وأودى بحياة العشرات.

انهار الجميع لسماعهم الخبر وأصبح الوضع مأساويّاً، تمّ إذاعة خبر استشهاد مريم ومربّيتها بعد أن فقد الجميع الجدوى من البحث عنهما، لتكون تلك الضربة القاضية التي تلقّتها زوجتك.

استمرّت زوجتك بالذهاب إلى باب المدرسة، كانت تركن السيّارة وتنتظر حتّى خروج آخر الطلاب، ثمّ تبكي بكاءً شديداً لعدم رؤية مريم بينهم، لقد وقعت زوجتك بين نار المضيّ قدماً ونسيان الماضي الذي لا يمكن لإنسان عاديّ تحمّله، ونار الوقوف على أطلال المصائب التي نالت من قوّتها وصلابتها.

أمّها أيضاً لم تصدّق ما حدث وفقدت صوابها لموت حفيدتها الوحيدة قبلها، مع المربيّة اللطيفة التي اعتادت أن تؤنس عليها وحشة الأيّام، فلم تتأخر كثيراً عن اللحاق بهم لتصبح زوجتك بنتيجة ذلك وحيدة بكلّ معنى الكلمة في معركة قاسية ضدّ الفقد.

تقدّمت زوجتك بعد وفاة والدتها بطلب إلى المحكمة لخلعك والانفصال عنك، وقرّرت السفر إلى لبنان، ثمّ تزوّجت بعد فترة من مدير أعمالها".

لقد قالت كلّ ما سبق بسرعة الخائف من نفاذ الكلام بلحظة، بالكاد استطاعت التقاط أنفاسها، قالته دون أن ترفع نظرها عن مقود السيّارة.

حين نظرت لي كانت عيناها قد وضعت قدماً لها على طريق البكاء، لكنّها تراجعت كثيراً عندما رأتني لم أحرّك ساكناً، في

الحقيقة لا يمكن اعتبار ذلك ثباتاً أو ما شابه، لأنّني لم أكن استوعب أبداً ما قالته، ظننت أنّ الأمر كلّه عبارة عن مزحة ستعتذر عنها لاحقاً.

عادت لتسألني مجدّداً: "هل أنت بخير أستاذ؟"، فأجبت بحدّة لإخفاء مشاعر لا يمكن إخفاؤها: "إنّني بخير إن توقّفت عن نعتي بالأستاذ، لا أحبّ هذه الكلمة ولا أحبّ المدرسة التي تعلّمت فيها أن أقول لمن يلقّنني الدرس أستاذاً، هل يمكنك إيصالي لمنزلي أو لمنزل صديقي حسن، أو تتصلي به على الأقل؟".

ملامح الدهشة والخوف من عدم تعليقي على كلامها أو القيام بأي ردة فعل استوطنت جوارحها، فأشعلت محرّك السيّارة وأدارت نظرها نحوي:

" كان حسن يزور عائلتك في كلّ إجازة، يطمئنّ عليها قبل أن يطمئنّ على أخيه، يسأل زوجتك إن كانت قد توصّلت لمعرفة جديد بخصوصك، أو استطاعت إيجاد طرف خيط حول مكانك، بعد أن أصبح الوضع صعباً في منطقته التي انتقل مكان خدمته إليها، استعاض عن ذلك بالاتصال بين الحين والآخر، ثمّ انقطع الاتصال مؤخّراً بسبب اشتداد الحرب وتعطّل أبراج الشبكة، إنّه يحارب الآن على أسخن الجبهات في البلاد.

في آخر مرّة كان بها هنا، تشاجر مع زوجتك لأنّها قرّرت الانفصال عنك والسفر إلى لبنان مع عدد من طاقم عمل الشركة،

شتمها وأراد ضربها، كما تعلم إنّه سريع الانفعال وحادّ الطبع، طلبتُ منه الاعتذار منها وتوديعها قبل انتهاء الإجازة"

"أريد سجائر هل لديك علبة في السيّارة؟"، قاطعتها لأنّني لا أريد سماع المزيد من الكلام، أو لأنّني لا أعرف ما هو الشعور الذي يفترض أن أشعر به، فحين يكون هنالك مجموعة مختلطة من المشاعر أفضل شيء يمكن فعله هو الامتناع عن الشعور بأيّ منها للخروج بأقلّ العواطف.

توقّفتْ عند متجر على الطريق الذي لا أعرف إلى أين سيؤول لشراء علبة سجائر، تفاجأت أنّها دون من النوع الذي أفضّله دون أن تسألني حتّى عن اسمه، مضى وقت طويل دون أن أضع في فمي سيجارة، ولا أذكر أنّ التدخين خطر ببالي طوال الفترة التي قضيتها في السجن، فتحت العلبة وأشعلت واحدة، ثمّ هممتُ بالسؤال، فأجابت قبل أن أسال:

" أعرف أنّك تفضّل هذا النوع، وأعرف الأماكن والأوقات التي تفضّل فيها التدخين، ونوع القهوة التي تشربها حين تدخّن، كما أعرف أنك لا تحبّ التدخين أصلاً بل تحبّ إحراق السجائر فقط، ألم أخبرك بأنّني أعرف عنك الكثير؟

ما قرأته لك ساعدني كثيراً في تحليل شخصيّتك، لا أدري إن كنت تتعمّد ذلك، تُسقط الكثير من صفاتك على ورق الكتابة، فتُشعر القارئ أنّه على صلة متينة معك".

أنهيت السيجارة الأولى، لا أذكر كيف كانت طعمتها لأنّني لم أكن أشتهيها حقّاً، طلبتها للانشغال عن الحديث فقط، لإيجاد مهرب من سماع المزيد من الكلام.

أخذت عقب السيجارة من بين أصابعي ووضعته في مطفأة سجائر السيّارة، ظننت أنّها رمته فيما بعد، لكنّني تفاجأت حين رأيته موضوعاً بداخل كيس شفّاف صغير ومعلّقاً على مرآتها.

إنّني أخاف هؤلاء الناس، أخاف منهم وعليهم في الوقت ذاته، أولئك الذين يحتفظون بالأشياء التي لا قيمة لها لتصبح بين أيديهم أِشياء لا تقدّر بثمن، خطرت ببالي الفتاة التي احتفظت بشعرة سقطت من رأسي على طاولتنا في المقهى الذي كان شاهداً على اللقاء الأوّل، يومها التقطت الشعرة ووضعتها تحت غطاء بطاريّة هاتفها، استغربت فعلتها فكتبتُ في ملاحظاتي: **"**تلك التي احتفظت اليوم بالشعرة التي سقطت من رأسي، هل ستحتفظ غداً بقلبي الذي سيسقط في يدها لا محالة**؟!"**

بعد أن مضى كلّ منّا في سبيله، فكّرت بتلك الشعرة كثيراً، وددت معرفة إن كانت لا تزال تحتفظ بها، أم رمتها ورمت معها كلّ شيء سقط سهواً حين كنّا معاً**!**

"أنا جائعة جداً وأنت أيضاً أليس كذلك**؟!** سنذهب إلى الشقة التي أسكنها الآن، إنّني أعيش بمفردي لكن أقضي معظم الوقت في القناة، بينما تستحمّ سأكون قد أحضرت لك بعض الثياب،

سترتديها ونخرج بعدها لتناول الطعام، إن أردت الذهاب إلى أيّ مكان بعد ذلك لا يمكنني منعك بالطبع"

قالت ذلك وهي تحاول إبعادي عن الوصول إلى الكثير من الحقائق، قد يكون نوعاً من أنواع العزاء أن تجعل إنساناً حزيناً يضلّ طريق البكاء، ترشده إلى متاهة التفكير عوضاً عن ذلك.

تمنّيت وقتها لو كان عندي خيار غير الذي وُضع أمامي، لو أنّني لم أخرج، أخفضت رأسي معلناً قبولي باقتراحها، منصتاً لما قالته فيروز عبر مذياع السيّارة: "اللّي بروح مش لازم يرجع".

الفصل الثالث

الثانية بعد منتصف كلّ شيء، الوقت هنا هو الشيء الوحيد المتوفّر بكثرة وبكميّة زائدة عن حاجة الجميع، كلّ ما أبصره يودّ لو يقدّم استقالته من الحياة فتتمّ الموافقة عليها بسهولة تامّة، بلا جهد أو عناء.

أمامي أوراق تطوي نفسها بنفسها حين أفرغ من تشويه بياضها بحبر أزرق جافّ، أقلام سئمت من كتابتي بها معظم الوقت، لقد نسيت أن أشكر من أحضرها لي لكنّني دعيت له، كما نسيت أن أسأل عن اسم الشخص الذي أوصاه بذلك لكنّني خمّنت من يكون، عندما وضعها في يدي ناداني باسمي الذي لم ينادني أحد به منذ زمن حتّى كدّت أنسى أنّ للمرء اسم ينادى به، وقال لي عبارة يتيمة لا يوجد فرق كبير بينها وبين السكوت: "حاول أن تبق على قيد الحياة!".

بالمناسبة لقد علّمتني أمّي كيف أخيط الوقت حين تكثر فيه الشقوق وتتّسع، أصنع من أجزائه ستائر تحجب ظلمة اليأس وما يليها، بداية يجب أن أتقن إدخال الكلام في ثقب الصمت الصغير، بعدها يمكنني الاستعانة بالموسيقى وشركائها لأهوّن الأمر على نفسي، في نهاية كلّ خيط لا بدّ من صنع عقدة متينة، إنّي بارع جدّاً في صنع العقد.

تذكّرت اليوم الذي شتمت فيه أحد السجناء، كانت تلك المرّة الأولى التي أتحدّث فيها مع أحد بعد دخولي السجن، حتى ذلك الحين ظنّ الجميع أنّني أبكم، أنّ أحداً ما قام بقطع لساني ورميه للكلاب التي يتسلل صوتُ نباحها من فتحة مرتفعة في الجدار لا يصحّ تسمّيتها نافذة، شتمته لأنّه وصف ضبّاط الجيش والشرطة بأقسى ما يمكن للمرء أن يُوصف به، اعتبرت أنّ صديقي حسن أحد الذين طالهم هجومه القذر، رغم أنّني تلقّيت بعدها ضرباً أقسى بكثير من الكلام الذي قاله، ونُقلت إلى الحبس الانفرادي على سبيل العقوبة، لكنّني شعرت يومها بالفخر بقدر ما آلمتني أطرافي، فقد دافعت لأوّل مرّة في حياتي عن شيء يخصّني، حتّى وإن كان ذلك الدفاع بشتيمة لا تنتمي أبداً للغة الكتب التي قرأتها والنصوص التي كتبتها.

تذكّرت اليوم الذي دخلت فيه السجن، الأنظار التي تسلّقت جسدي لتصل إلى قمّة رأسي، ترمي نفسها قبل ذلك بقليل كالمنتحر عن جسر عالٍ لا يصل بين ضفّتين، تشعرني كما لو أنّني أقف على خشبة مسرح أؤدّي بمفردي كلّ أدوار البطولة، فأكتم باستذكار موسيقى محبّبة صفير المشاهدين الذي يدخل رأسي من جهة ويخرج من جهة أخرى مخلّفاً ثقباً يكفي لإدخال إصبع عملاق، الحائط كان أوّل المرحّبين وآخرهم، أشار لي كي أقترب منه دون قلق، قد يغيب عن أذهان الكثيرين كما كان غائباً عن ذهني أيضاً قبل ذلك اليوم أنّ الجزء الصغير من الحائط الذي تحتاجه لإسناد ظهرك إليه سيكون نعمة واسعة، الأفواه الصامتة من

حولي سألت أسئلة متوقّعة، والجواب غارق في قطرة الماء التي تسقط من مكان ما مصدرةً صوتاً عميقاً، تكراره يشعرك أنّك عبارة عن نقطة سوداء في صورة متحرّكة قبيحة.

تذكّرت اليوم الذي تعمقّت فيه بالقراءة عن أدب السجون نتيجة الحماس الذي شعرت به حين استطاع كاتب نسيت اسمه الكامل أن يصف حياة السجين جاعلاً من غرفتي زنزانة واسعة بالمقارنة بينها وبين التي تمّ وضعي بها لاحقاً، يومها تمنّيت أغبى أمنية على الإطلاق، تمنّيت أن أصبح واحداً من أدباء السجون، ثمّ بقيت في كلّ لحظة قضيتها في أقبية السجن أتمنّى لو أنّني لم أتمنّى ذلك أبداً، مفهوم الوقت يصبح أكثر تعقيداً داخل السجن، كتبت في ذلك اليوم قصّة عن ملك قام بوضع رجل في السجن دون أن يعلم ذلك الرجل ما هي تهمته، أمر الملك حرّاس السجن أن يقدّموا له الطعام و الشراب دون أن يتكلّموا معه أبداً، بعد سبع سنوات أخرجه الملك وعوّضه بالمال و الذهب، وطلب منه أن يصف له المدّة التي قضاها في السجن، تفاجأ الملك و حاشيته عندما أخبرهم الرجل بأنّها كانت قصيرة جدّاً، معلّلاً ذلك بأنّه كان يجهل مصيره تماماً، الشعور الوحيد الذي رافقه منذ اللحظة التي دخل بها هو الشعور بأنّ الصباح التالي هو الصباح الذي سيمتثل فيه لحكم الإعدام، ذلك الشعور كان يدفعه لعيش كلّ يوم على أنّه اليوم الأخير له في هذه الحياة، فمضى الوقت سريعاً بالرغم من خلوّه من السعادة والفرح.

تذكّرت اليوم الذي قرأت فيه لمريم على ضوء شمعة خافت قصصاً قصيرة قد كتبتها، انتهت القصص مع انتهاء الشمعة الأخيرة، لكنّ العتمة التي جلبها انقطاع التيار الكهربائيّ عن المدينة نتيجة الحرب الدائرة لم تنته، ولم ينته إصرار مريم على معرفة مصير الأشخاص الذين أكتب عنهم كلّ تلك القصص، مُجبراً على ذلك أخبرتُها أنّهم يختفون بعد كتابتي عنهم مباشرة، ينتقلون من الحياة التي نعيشها إلى حياة جديدة بين صفحات الكتب، قبل انتقالهم بقليل يطلبون منّي الكتابة عنهم ولا يمكنني أن أرفض طلبهم، لأنّني بذلك لن أكون كاتباً.

تذكّرت اليوم الذي تخاصمت فيه مع ياسمين لأنّني رفضت بشكل قاطع مغادرة هذه المدينة حتى وإن أصبحت الحرب فيها كلّ ما فيها، فكرة التخلّي عن الأشياء تصبح أصعب كلّما كبرنا، كلّما زاد اليقين بأنّ البدء من جديد سيستهلك كميّة طاقة أكبر من التي تلزم للوصول، توصّلنا في نهاية ذلك اليوم إلى حلّ وسط بيني وبينها، وهو الانتقال إلى بيت أكثر أماناً وأقلّ عرضة للموت برصاص قنّاص تشهد على براعته أعداد الأبرياء الذين لا زالوا يقطعون العمر من ممرّ المشاة رأساً على عقب، يركضون في ممرّات المشفى المهجور، يتسلّقون أعمدة الإنارة في الشوارع، يضربون نوافذ الجيران بالحلوى والسكاكر، يلعبون بالكرة المطبوعة على لوحة الإعلانات، يركلون أحجار المدرسة التي رسبت في الامتحان الأخير، يخرجون من منازلهم حين يدخل

النوم، ينامون على سرير الغابة، يغيبون حين أنظر إليهم، وينظرون حين أدير ظهري لكلّ ما سبق.

تذكّرت اليوم الذي مرّت فيه رصاصة بالقرب من رأسي، كان صوت الاشتباكات يعلو شيئاً فشيئاً، توقّفت لبضع ثوان كي أتّخذ القرار المناسب، وهربت بعدها فلحقتني الأصوات والشظايا، ركضت بسرعة تمكّنني من الفوز في سباق للخيول العربيّة الأصيلة، وصلت إلى البيت بعد أن تلوّن وجهي بالأصفر الباهت، لم أصدّق أنّني حيّ حتّى أتت لي مريم بكأس ماء، وقبّلت بشفتيها باطن يدي.

تذكّرت اليوم الذي عقدت فيه ياسمين اجتماعاً بدمشق ،ذهبت أنا ومريم برفقتها وانتظرنا كالعادة إلى حين انتهائه في حديقة بالقرب من مكان الاجتماع، الحديقة التي وقع عليها اختيارنا في ذلك اليوم هي حديقة (النيربين)، حديقة مكوّنة من ثلاث طوابق متراكبة تطلّ على دمشق من حيّ (المهاجرين)، في الطابق العلويّ هنالك أرجوحة ركبتها مريم وقمتُ بدفعها، حين فرغت من اللعب جلسنا على أحد المقاعد الخشبيّة لتناول الآيس كريم، قبل مغادرتنا وجدت مريم زهرة غريبة بعض الشيء، سألتني عن اسمها، وكانت دائماً ما تسألني عن اسم كلّ شيء تجده، ويفترض بي أن أعرف الإجابة، أجبتها بأنّني لم أشاهد مثلها من قبل، ولا أدري ما هو اسمها ونوعها، بالطبع إجابتي غير مقبولة أبداً بالنسبة لمريم، لذا اقترحت عليها أن نسمّيها اسماً خاصّاً بنا،

راقت لها الفكرة كثيراً، واختارت بعد دقائق من التفكير أن نسمّيها (مراج)، للوهلة الأولى بدا لي الاسم غريباً أكثر من غرابة الزهرة، ولم يخطر ببالي أنّها استخدمت أوّل حرفين من اسمها وآخر حرفين من اسمي لابتكار ذلك الاسم.

تذكّرت اليوم الذي وقّعت فيه كتابي الأول، أهديته لطروادة المنسيّ من متنه، ولسيّدة الصبّار المنتظرة، أرسلت النسخة الأولى لأمّي التي اختارت البقاء بالقرب من أخواتها في لبنان، بعد أن فشلت بإقناعها أنّ العيش في البلد الذي ابتلع عمر أبي لن يردّ لها من عمره شيئاً، صدور هذا الكتاب أشعر مريم أنّها رزقت بأخ ورقيّ، حملته بين ذراعيّ وقبّلته من كلّ الجهات، وضعته أمامي لساعات، ونمت في تلك الليلة على مباركات أصدقائي والزملاء.

تذكّرت اليوم الذي أصبح فيه حلم العودة للعيش في مدينة حمص حقيقة، المدينة التي عشت فيها أجمل سنين الشباب، عدت مع طفلة تعلّمت المشي حديثاً، وزوجة تحمل أعباء الشركة التي تركها والدها، وأمّها المتقدّمة في السنّ والمرض، عدت للقاء صديقي حسن الذي يسكن الشقة الصغيرة التي احتضنت بين جدرانها ذكرياتنا المشتركة، في غرفة النوم خزانة لا تمتلئ بالملابس، يزاحمها شيء آخر لا أدري ما هو، لم أضعه في الحقيبة، وضعت عوضاً الهدايا التي مضى على ورود آخرها شهور غابرة، في غرفة الجلوس الكثير من أشياء التي وددت

أخذها معي، كالشجرة البلاستيكيّة التي تزيّن الزاوية، و الليالي التي نمت فيها باكراً على الأريكة، ففاتتني السهرات التي يصعب جداً استردادها، والضحكات التي أغرقت البناية، علمت أنّه يتعذّر ذلك فتركتها، في المطبخ فرن وقفت منتظراً بجانبه، ناظراً في جوفه دون إذن منه، وبرّاد يؤكّد أنّ المجاعات على سطح الكوكب لا تأتي إلا بنتيجة ناس مجاورين لها، فيه صحن حمّص يابس غير صالح للأكل أبداً، وحبّة طماطم واحدة توشك المزرعة التي قطفت منها على الانقراض، ونصفا ليمونة أسقطناها من شجرة الجيران، على أحد الرفوف زجاجة دبس العنب التي صنعتها أمّي وأرسلتها كي يتحسّن صوتي قبل كلّ أمسية شعريّة أقمتها.

تذكّرت اليوم الذي وصلت فيه متأخّراً إلى المشفى، الانتظار أهلك وجوه الذين وصلوا قبلي حتّى كدّت أنكرهم، حزن أبي كان الأمرّ وذبول ياسمين كان الأقسى، فكّرت في إمكانية أن يكون ما قاله لي صحيحاً: "الطيّبون ينفذون بسرعة من هذا العالم يا وهّاج!"، بطبيعة الحال لم أتعرّف على الكثير منهم، لكنّني أثق تمام الثقة أنّه من الصعب إيجاد شخص بالطيبة التي امتلكها، أكاد أجزم أنّه لم يعرف ذلك، أقصد أنّه من الذين سينفذون بسرعة للأسف، الطبيب الذي خرج من غرفة العناية المشدّدة لم يتقن العربيّة لكنّ تعابير وجهه تكلّمت بطلاقة، وأعلمتنا بوفاة صديق أبي الوحيد، أحزنني بكاء ياسمين ، احتلّ جزءاً كبيراً من فراغ

الممرّ حتّى ظننته ابتلعني، كان الدمع وقتها قريباً لا يمكنني الوصول إليه وبعيداً لا أُبعد عنه ناظري.

تذكّرت اليوم الذي قلت فيه أنّني أوافق، أوافق على زواجي من ياسمين، الابتسامة مسحت وجوه الجالسين في الصالة، فعادت لها البهجة مثلما تعود إلى لوحة قديمة عند مسح الغبار عنها، مثلما تعود لنبات دوّار الشمس في كلّ صباح، أحزنني ضحك ياسمين، دفعني إلى البكاء الجاف، ذلك الذي تطلب لأجله الدمع فلا يستجيب، الغريب في الأمر أنّني استطعت إكمال السهرة بعدها، واستذكار الطريقة التي يتكلّم بها الإنسان، استحضرت قوّة لا يستهان بها للعودة إلى الزمان الذي كنت فيه.

تذكّرت اليوم الذي تناولت فيه العشاء في منزل صديق أبي، أحاطت اللطافة بالطاولة من كلّ جهاتها عدا واحدة، حاولت الأكل ببطء وبهدوء على غير عادتي، حاولت أن أكون ودوداً قدر المستطاع مع ابنته، ذكّرتها بآخر مرة التقينا فيها قبل أن تسافر مع أهلها، أظهر لي حديثها نضجاً ملحوظاً وثقافة أكبر من عمرها، ممّا دفعني لمجاراتها بالحديث نوعاً ما، بعد انتهائنا من العشاء طلب والدها الكلام معي على انفراد، وفي ختام الأمسية أوصلتني ياسمين بسيّارتها إلى بيتنا، شكرتها واتّفقنا على الخروج لاحقاً.

تذكّرت اليوم الذي انتظرت فيه مع أبي وصول عائلة صديقه العزيز إلى مطار بيروت، تذكّرت شكله كما رسمه أبي في

مخيّلتنا على مدى الأيام فأحببناه واستشعرنا وجوده بيننا دون أن يكون، وشكل زوجته التي لم تشعر أمّي بالراحة للقائها مطلقاً، ولم تستمتع بقضاء وقت معها أبداً، تذكّرت شكل ابنته الوحيدة التي لم أرها منذ أن كان من الصعب عليها لفظ اسمي بشكل صحيح، فصنعت لنفسها اختصاراً مضحكاً، تذكّرتها رغم أنّني لم أملك صورة لها، رغم المسافة التي تفصل بيننا، لم تكن صغيرة يوماً ولم تحدّدها على سبيل المثال طاولة خشبيّة، تذكرتها رغم أنّنا لم نشرب القهوة معاً ولم نستمع إلى فيروز وهي تغنّي: " وتشرب من فنجانك واشرب من عينيك "، تذكّرتها رغم أنّ الهواء الذي يلاعب الأعلام المرفوعة لا يشبه أبداً الهواء الذي يلاعب شعرها، لا أعرف إن كان قصيراً أم طويلاً، إنّ الفارق كبير ويتّسع لكلّ شيء، تذكّرتها رغم أنّنا لم نكن جيراناً، لم تلوّح لي حين أذهب ولم ترتعد فرحاً لقدومي، تذكّرتها رغم أنّنا لم نذهب معاً إلى الجامعة، السيّارة التي توصلها ربّما لن تقف إن رأتني ميّتاً ذات يوم على قارعة الطريق، تذكّرت وجهها الذي كان صعباً جدّاً لشخص كثير النسيان مثلي أن يتذكّره، تذكرت عينيها التي أجهل لونهما لكنّني أعلم أنّهما جميلتان جدّاً.

تذكّرت اليوم الذي بدأت فيه عملاً استطاع أبي تأمينه لي بصعوبة، تقاسمت الراتب الشهريّ مع أهلي وصاحب الشقة وموظفي الضرائب، الالتزام بالمواعيد كان عدوّاً لدوداً لي ولهذا طردت من العمل أكثر من مرّة، فاضطرّ أبي لتقديم العهود

لرئيسه السابق في العمل نيابة عني، واضطررت للالتزام بها كي لا يعود أبي إلى العمل مجدداً معانداً جسده المتعب.

تذكّرت اليوم الذي قطعت فيه الحدود مسافراً إلى لبنان، تعطّل أبي عن العمل كي يأتي لملاقاتي بسيّارته، بعد كلّ ذهاب و قبل كل إيّاب، كنت أقضم أصابع القدر التي ربّت هذه المسافة بيني و بينه، والتي أقنعتُ نفسي دوماً بأنّها رمية حجر عندما أقرأ له مقطعاً من الشعر، كنت أنفخ على الجبال لعلّها تكون غباراً فأركض مجتازها إلى مكان عمله، كنت أضرب أنف الأسباب التي حرمتنا من تناول الطعام على سفرة واحدة، كنت أعصرُ الساعات التي لم نعد نشاهد فيها سباقات (الفورميلا وان) لتشجيع (شوماخر)، و نترقّب بطولات التنس التي يشارك بها (فيدرير)، و نبصق من خلف الشاشة على لاعب منتخبنا الوطنيّ الذي أهدر فرصة في إحراز هدف الفوز، كنت أضع اللوم على الطرقات التي لا تأخذني إليه ولا تأتي به إليّ عندما أكون بحاجة ماسّة لذلك، كان أقلّ من أتحدّث عنه وأكثر من أجد له في قلبي مكاناً و متسعاً من الحبّ، الخطوط الأفقيّة الثلاثة التي تتربّع على رقعة جبينه ظهرت بوضوح أكبر، اعتقدت في صغري أنّه قد صنع خطّاً صغيراً لأختي نور وخطّاً متوسّطاً لي وخطّاً كبيراً لأمّي كي يفكّر بنا دوماً، عندما وصلنا إلى المنزل الذي استأجره في منطقة جبليّة جميلة كانت أمّي قد حافظت على نكهتها الخاصة في إعداد الطعام، كما حافظت على شكلها الذي لم يتغيّر منذ أن

خلقها الله، على عكس نور التي ازدادت أنوثة و جمالاً، وكسبت المزيد من شهادات التفوّق.

تذكّرت اليوم الذي قرّر فيه حسن التطوع في الجيش والقوّات المسلّحة بعد أن تخرّج من الجامعة، لم يعد هنالك شيء يمنعه من تقرير مصيره، الوحدة التي شعرت بها في ذلك اليوم لم أشعر بها من قبل، وازدادت صعوبة على عكس ما توقّعته، فوصفت ما كان أمامي لأهوّن على نفسي الأمر؛ الحذاء ذو عنق طويل، لم يكن يستغرق خلعه وقتاً طويلاً، لأنّه لم يعتد فكّ الرباط المقيت بل كان يشدّه كما يشدّ الحزن قلبي في كلّ مرة استذكرت فيها كيف يفعل ذلك، الصورة جميلة جدّاً، أنظر إليها كأنّها تنعكس على معظم الغرفة، تدفعني ابتسامتها إلى الابتهاج لأنّني طلبت من المصوّر أن ألتقطها له بنفسي، فهي من الصور النادرة التي يظهر فيها حسن مبتسماً، الثياب ذابلة، لقد لبسها أكثر من جلده حتّى ظنّ الذين عرفوه مؤخّراً أنّها ملتصقةٌ به، ولا يستطيعُ نزعها عنه، هذه الثياب التي لا يمكنني أن أتصوّره يوماً مرتدياً غيرها ستبقى معلّقة في ذاكرتي كما خلف الباب إلى الأبد، ما حاولت فعله يومها هو إعادة ترتيب أجزائه، حذاؤه خلف الباب، صورته على الحائط، ثيابهُ معلّقة في زاوية الغرفة، ولا جرأة كافية لديّ كي أطلب العون من الله، هو من أراد ذلك بكامل إرادته.

تذكّرت اليوم الذي اعتقدت فيه أنّ مكالمة الساعة العاشرة كانت مزحة، لم أصدّق ما قالته لي ليلتها، لم أرد تصديقه، حاولت تناسي الأمر والمحافظة على هدوئي في غرفة الجلوس ريثما أخلد للنوم دون أن يلاحظ أحد تعكّر مزاجي، ضحكت مع الآخرين ليبدو كلّ شيء على ما يرام، رفعت قليلاً ما كان سيهبط عاجلاً أم آجلاً، لقد أقسمت أنّ حياتها ستنعدم بعدي، هذا يعني أنّها كذبت، أو توجّب عليها الانتحار لتكون صادقة، أزلت الصورة التي وضعتها على يمين المرآة، قرّرت فيما مضى عدم إزالتها مهما حدث بيننا، استعضت عن ذلك القرار بقرار جديد يقتضي بعدم الكتابة عنها، علماً أنّ الكتابة جريمة قتل لا يحاسب عليها القانون، اندسست في الفراش، وتقلّبت كثيراً قبل أن استسلم للنوم، لم أستذكر أيّاً من الأحلام التي رأيتها، لكن على الأرجح لم تكن كوابيساً، فالكابوس الأسوأ شاهدته قبل نومي.

تذكّرت اليوم الذي مات فيه العمّ أبو حسن، الحكايات التي نقلتها من وجهه إلى أوراقي كانت تصل إلى نقطة ما ثمّ تتوقّف فجأة، لم تكتمل أيّ منها، ولا أعرف إن كان الخلل بي أم بالخاتمة التي ترفض المجيء برحابة صدر، حاولت جاهداً إكمال واحدة على الأقل، وفشلت طبعاً، بعده لم أغادر مخدعي عدة أيّام بسبب وعده لنا بزيارة غير عابرة، على أيّة حال لم يعد باستطاعتي إخباره أنّني أكملت حكاية قد بدأتها منذ زمن، والفضل يعود أولاً وأخيراً لزيارته الأخيرة، حين توجّه إلى الباب بعد حفلة من الضحك العالي والنكات، تثاقلت قدماه حتّى توقّفت عند العتبة، واستدار

نحوي ببطء مخيف يوحي أنّ كلاماً قاسياً سيتبعه، حدّق بي مباشرة لبضع ثوانٍ، ثمّ قال بلهجة بعيدة كلّ البعد عن المزاح الذي كان سيّد الجلسة: "دعوت الله أن يرزقك شرفة واسعة للكتابة، أؤمن أنّه سيفعل"، بكيت موته بعدد المرّات التي ذهبت فيها لإقناعه بترك الحقل والانتقال للعيش معنا في المدينة، بعدد المرّات التي رفض فيها الذهاب إلى الطبيب، بعدد المرّات التي أبدلت فيها علب دوائه التي شارفت على الانتهاء بجديدة، بكيت بعدد المرّات التي رأيت فيها من اعتددت على ضحكته باكياً.

تذكّرت اليوم الذي تلقّيت فيه خبر إصابة أبي بنوبة قلبيّة، و نقله على إثرها إلى المستشفى، لم أدر ماذا سأفعل، أشعلت سيجارة من النوع الذي يفضّله في الغرفة، ثمّ خرجت منها، وعدت لها بعد قليل لأشمّ رائحة سجائره فأشعر أنّه كان هنا ولا يزال بخير، تراجع حالته الصحيّة دفع أمي للتخلّي عن فكرة البقاء في القرية مع أختي بعيدة عنه، كانت المرّة الوحيدة التي ودّعت فيها أمّي لتكون هي المسافرة، أختي وعدتني أن تكون – كما دوماً – طالبة متفوّقة في المدرسة التي ستنتقل إليها، وبدوري وعدتهم أن أكون بخير، وألحق بهم بعد التخرّج من كليّة الصيدلة التي دخلتها قبل شهور.

تذكّرت اليوم الذي بدأت فيه الكتابة، الكتابة عن كلّ شيء وعلى كلّ شيء ولأجل كلّ شيء، الكتابة دون هدف أو غاية، الكتابة

بلا قالب أدبيّ محدد، لأنّ الكتابة كانت وستبقى قوس نجاتي الأخير.

الفصل الرابع

طرقت بابها لأجيب على سؤالها: "ماذا أتى بك إلى هنا؟!"، بسؤالي: "ألن تسمحي لي بالدخول؟!".

كنت ولا زلت أكره هذا النوع من الإجابات، كما كان أستاذ الجغرافيا في الإعداديّة يكرهها أيضاً، الإجابات التي تعيد للسائل سؤاله كما لو أنّه لم يسأل وتعطي المسؤول فرصة أكبر للتفكير بإجابة أو للهروب منها، صراحة لم يكن هذا قصدي، لكنّني فعلت ذلك لأنّني نويت أن أجيبها لكن ليس على عتبة الباب.

"بالطبع سأسمح، تفضل لكنّني أحاول تصديق ما أراه"، عادت خطوة إلى الوراء، وأكملت: "عندما سمعت صوت طرق الباب لم أتوقع أبداً أن تكون الطارق في وقت كهذا".

أشارتْ بيدها اليمنى إلى عنق الممرّ، وسمعتُ بوضوح لشدة الهدوء صوت تثاؤبها قبل إغلاق الباب الخشبيّ ورائي.

"أعلم أنّه كان يفترض بي الاتصال مسبقاً أو إرسال رسالة على الأقلّ لكنّ هاتفي خالٍ كعادته من الشحن" قلتُ، ثمّ نظرت إلى ساعة الحائط المعلّقة في آخر الممرّ لأتأكدّ من وقاحة القدوم في ذلك الوقت.

"الساعة الرابعة فجراً!"

"وهل كنت تظن أنها أقل من ذلك؟"، سألتْ بسخريّة مقبولة.

"لا أدري، ربّما المسافة التي قطعتها أوهمتني أنّ هنالك فرقاً في التوقيت بين الحيّ الذي أتيت منه وهذا الحيّ"، أجبرها ردّي على إظهار ابتسامة بسيطة، فطلبتُ كأساً من الماء، بينما أحضرته من المطبخ كنت قد تمدّدت على الأريكة دون أن أخلع حذائي واضعاً يديّ تحت رأسي محدّقاً بالسقف.

"لقد وضعتُ ركوة القهوة على النار"، قالتْ بعد وضعها كأس الماء على الطاولة، ثم جلست على الأريكة المقابلة تنظر لي منتظرة بترقّب أن أبدأ الكلام.

"لا شكراً، لا أريد شرب القهوة ستزيد من توتري في هذه الحالة، لقد استيقظت منذ ثلاث ساعات على ما أذكر، ارتديتُ الثياب وخرجت إلى الشارع بالسرعة القصوى، لحسن الحظ أنّ علبة السجائر التي اشتريتها قبل يومين لم تكن فارغة، وضعت سمّاعة الأذن وبدأت بالمشي دون وجهة محدّدة، أظنّ أنّني أخبرتك، أليس كذلك؟"

"أخبرتني بماذا؟"

" أخبرتك أنّ الطبيب قال لي مرّة أنّ المشي مناسب لي في هذه الحالة، أو التحدث إلى شخص أحبّه، مشيت لمدّة...."

أغمضتُ عيناً وأبقيت على الأخرى مفتوحة كأنّني أجري عمليّة حسابيّة معقّدة ثمُ تابعت الحديث:

"مشيت لمدّة ساعتين ونصف تقريباً دون توقّف ولم أشعر بتحسّن، لذلك فكّرت بالحل البديل وهو التحدّث إلى شخص أحبّه، أقصد أحبّ التحدّث إليه"

"حسناً؟"

"هذا كلّ شيء، وصلت إلى هنا وتردّدت كثيراً قبل أن أطرق بابك"

"لم التردّد؟! ألم أخبرك أنه بإمكانك القدوم متى شئت؟! المهمّ هو أنّك بخير الآن، دع عنك موضوع الإزعاج جانباً، سأذهب لأكمل صنع القهوة، ثمّ أعود في الحال"

تبعتُها إلى المطبخ بعد بضعة دقائق، وقفت مستنداً إلى البرّاد، وسألت نفسي بصوت مسموع:

"لمَ أتيت إلى هنا؟ "

" عفواً، لم أفهم قصدك!"

"لقد مررت بالكثير من الأحياء التي يسكنها أشخاص أعرفهم جيّداً، لم أفكر ولو لمجرد التفكير بأن أذهب لأحدهم، وأقوم بإزعاجه كما أزعجتك للتوّ"

"أنت لم تزعجني، كلّ ما في الأمر أنّني ارتعبت من قدومك في هذا الوقت، ظننت أنّ مكروهاً ما قد حصل"

سكبتْ القهوة في كأس زجاجيّ بدلاً من سكبه بفنجان، فنظرت لها مبتسماً:

"يبدو أنّك تأثّرت بي إلى حدّ ما"

"إنّك شخص لديه قدرة كبيرة على التأثير بمن حوله، طريقتك في الإقناع غريبة بشكل ظريف، تستطيع كسب الطرف الآخر من النقاش بسلاسة ومرونة"

ارتشفت قليلاً من القهوة، ثمّ وضعت كأسها على طاولة المطبخ لتكمل مبتسمة:

"عندما شاهدتك تشرب القهوة في كأس بدلاً من فنجان شعرت بالغرابة، لكن بعد أن شرحت لي وجهة نظرك حول كسر النمطيّة راقت لي الفكرة، فأصبحت أقوم بالعديد من الأشياء كما لم أقم بها من قبل، كيف تخطر لك هذه الخواطر يا رجل؟"

حملت كأسها مجدّداً وتبعتني إلى غرفة الجلوس، هذه المرّة جلست بجانبي:

"لو أنّك اتصلتَ بي فور استيقاظك وأخبرتَني أنّك لست على ما يرام، لأتيت إلى بيتك بسيّارتي، وذهبنا إلى أيّ مكان تريده، جلسنا على غطاء المحرّك وتحدّثنا حتّى تشعر بالراحة، استمعنا إلى الموسيقى ودخّنا السجائر، لكن ماذا إن صادفتنا دوريّة شرطة، وسألتنا ماذا نفعل في وقت كهذا على طرف المدينة؟

أضحكَني سؤالها لأنّني أعرف أنّها تحاول من خلاله الوصول إلى شيء ما، فأجبتُها:

"أنت لست بحاجة للإجابة، فأنت معروفة هنا بالنسبة لجميع الناس تقريباً، إنّهم يشاهدون برنامجك على التلفاز ويشاركون مقالاتك على وسائل التواصل الاجتماعي، أعتقد أنّه لو صادفتنا دوريّة شرطة سيطلب عناصرها التقاط صورة معك، على أيّة حال إنّي أفضّل السير على الأقدام في وضع كهذا، بوصف أدقّ أفضّل إرهاق نفسي على الطرقات كي أعود إلى البيت متعباً، فأضع رأسي على المخدّة وأنام دون أرق أو تفكير، أبحث عن شيء أملأ به الوقت لأكون متعباً، وأعود إلى المنزل فأنام دون أرق"

زفرت الكثير من الهواء كأنّ قطاراً بخاريّاً يختبئ في جوفي قبل أن أكمل:

"لقد أخبرتك ذات مرة أنّني شخصٌ يجد صعوبة بالغة في التمييز بين أحلامه والواقع، الأشياء التي أراها في منامي أتحدّث عنها كما لو أنّها قد حدثت معي حقيقةً، أذكرها وأكتب عنها.

لقد كتبت مرّة عن زيارة قمت بها إلى بيت (فيروز)، معظم الذين قرأوا ما كتبته حينها ظنّوا أنّني قمت بزيارته حقّاً، لكن ما استيقظت عليه قبل المجيء إليك لم يكن يشبه أيّاً من تلك الأحلام، عبارة ردّدتها كالنشيد: (مسحتُ من ذاكرتي محمّد، والعزف الذي كان يعزفه على العود محمّد، مسحت محمّد مسحتُ محمّد)

لا أعرف من هو محمّد، ولا أعرف إن كان يجيد العزف على العود أم لا، ولا أعرف لماذا هذا الإصرار كلّه على مسحه من ذاكرتي إن كنت لا أعرف أساساً أحداً بهذا الاسم"

لمعت عيناها كما لو كان ذلك برقاً يوحي بدمع قد يهطل في أيّ لحظة بعده، كأنّ ما قلته عن محمّد يعنيها أكثر من محمّد ذاته، فسألتْ:

"هل فكّرت في أحد ما لم يكن اسمه محمّد لكنّه كان يحكي لك عن شخص اسمه محمّد، أقصد أنّ ذاكرتك ارتبطت بالاسم الذي كان يردّده لك أكثر من ارتباطها باسمه؟!"

" لا، لا أذكر شيئاً يشبه ذلك، لكنّني تذكّرت قبل وصولي إلى هنا بقليل قصّة حدثت معي سابقاً لا علاقة لها بالموضوع طبعاً، تعرّفت بالصدفة على فتاة معي في الجامعة، بسرعة مخيفة تقرّبت منّي، وأصبحت تحادثني بشكل متواصل ودون انقطاع، تسألني عن تفاصيل يومي ومجرياته كما لو أنّها كانت تكتب عنّي سيرة ذاتيّة، لقد أحبّتني تلك الفتاة كثيراً واعترفت لي فيما بعد بذلك، عندما أعطيتُها رقمي حفظته على هاتفها باسم محمّد، في البداية ظننت أنّها كتبته سهواً دون قصد و ستقوم بتصحيح الاسم لاحقاً، لكنّ اسمي على هاتفها بقي محمّد، عندما استفسرت عن السبب ردّت بأنّ اسمي مميّز وقد يكون معروفاً بالنسبة لأصدقائها ومن حولها، ثمّ أخبرتني عن خوفها من أن يعرف أحد بوجودي في حياتها، مبرّرة ذلك الخوف بأنّ العالم يفسد كل

ما هو جميل، لذلك عليها أن تخفي علاقتها بي قدر المستطاع، بعد افتراقنا خطر ببالي سؤال: هل اسم محمد لا يزال محفوظاً على هاتفها أم مسحته؟!"

" إذن هذا هو محمّد الذي كنت تردّد اسمه!"، قالت ذلك ونهضت للمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً.

"لا، لا أظن ذلك، لقد سردت لك هذه القصّة لأنّني تذكرتها فقط لا أكثر، لكن لنفترض أنّ محمّد المقصود في العبارة كما تقولين هو ذاته الذي في القصّة، أنا لا أجيد العزف على العود، وإنْ كنت كذلك أخبريني لماذا أمسح نفسي من ذاكرتي؟"

"لم تكن أنت من مسح محمّد من ذاكرته، هي من مسحت محمّد من ذاكرتها، أي أنّك كنت تردّد ما قالته أو أرادت قوله"

نظرتُ لها مع إمالة رأسي إلى اليمين قليلاً: "حسناً، سأتّفق معك أن العبارة التي ردّدتها في صباحي كانت على لسانها، ولكن ما شأن العود بمحمّد الذي هو أنا؟"

"سأشرح لك، إنّها أطلقت عليك اسماً شائعاً لا يلفت الانتباه أبداً كاسم محمّد، قياساً على ذلك ستكون قد استبدلت كتابة الشّعر مثلاً بالعزف على العود، فتصبح العبارة الأصليّة: (مسحت من ذاكرتي وهّاج، والشّعر الذي كان يكتبه دفتره وهّاج، مسحت وهّاج مسحت وهّاج)"

انبهرت بما قالته، ضحكتُ ضحكة المنتصر على جيش من الدمى، أعدت رأسي إلى الوراء، ثم قلتُ لها:

"كان من الأفضل أن تصبحي محقّقة لا إعلاميّة، أشعر كما لو أنّني في نهاية حلقة من مسلسل (كونان) قد حلّ فيها لغزاً لجريمة ما، لقد أذهلتِني حقاً!"

صفقت لها ببرود، بعد أن تراجعت الابتسامة كثيراً إلى الوراء:

"لكنها لم تفعل صدّقيني!"

ربّما لم تسمعْ ما قلتُه أو سمعت لكنّها تجاهلت الأمر، أصغى كلانا إلى الهدوء قبل أن تسأل باستغراب:

" من؟! "

طرحت ظهري على كامل الأريكة، وحككت جبيني بثلاثة أظافر، قلت بعدها:

"لكنني اشتقت لها كثيراً"

" للفتاة ؟!"، سألتني بتلهّف.

"لابنتي مريم"

"هنالك علاقة غريبة تربط بين مريم والفتاة، إنّك تخفي الكثير يا وهّاج!"

الأصابع التي كانت على جبيني نزلت شيئاً فشيئاً إلى عينيّ وعركتهما قليلاً، فأكملت لتبعدني عن حافّة الكلام المؤدّي إلى البكاء:

"أتصدّق؟! لقد أحببت ابنتك قبل أن أراها، من كان يتابع ما تكتبه قبل ولادة مريم يشعر بأثرها الواضح على مسار قلمك"

"كلّا لم تمسحني من ذاكرتها"

"مريم؟"

"لا، الفتاة التي أخبرتك بقصتها"

" لا أفهم لم اختلطت الأمور ببعضها هكذا، لكن ما أفهمه هو أنّه يجب علينا الاستعداد للذهاب بعد قليل باتّجاه قرية بعيدة بعض الشيء، أريد مساعدتك في إعداد تقرير عن الحرب التي شهدتها تلك المنطقة، عندما ترى الطبيعة والبشر هناك، ستشعر بتحسّن كبير أعدك بذلك، هل أنت مستعد؟

تناولتُ ما تبقّى من الماء في الكأس وهي تنظر إلى وجهي المنعكس على قعره وتبتسم، أخذني الشرود عنها لحظة ثمّ ضحكتُ بكلّ استطاعة عضلات وجهي، فقالتْ: "هذا لا يحدث دوماً، أنت تضحك؟! أكاد لا أصدّق ما أراه وأسمع!"

قطعت ضحكتي لإخبارها عن السرّ:

"كانت مريم تسألني قبل أن نفعل أيّ شيء إن كنت مستعداً فأرفع لها يدي وأقفز من قدم لأخرى وأنادي مثل (سبونج بوب) الذي اعتدنا مشاهدته معاً: "أنا مستعد! أنا مستعد!".

كنت قد قطعت عهداً على نفسي بالامتناع عن مشاهدة التلفاز إلّا مع مريم، أجلس بجانبها لنشاهد معاً برامج الأطفال التي نحبّها، حين نفرغ من ذلك أغلق التلفاز كي أبتعد عن سماع نشرات الأخبار والتحليلات السياسيّة.

عندما كانت أصوات الحرب تصل بشكل واضح، أرفع صوت الموسيقى الكلاسيكيّة لأشعر بالسلام نوعاً ما، الأمر الأصعب في الحرب هو أن يسألك طفل إن كان ما يسمعه ويراه حقيقة أم مشهداً سينمائياً يعود فيه المقتول إلى الحياة عند الانتهاء من التصوير، إن كان هنالك نهاية معلنة للحرب بحضور كلّ الذين شهدوا أحداثها، كلّ الذين ماتوا وعاشوا فيها.

في بيت نرجس أشعلت التلفاز لأوّل مرة بعد الخروج من السجن، إحدى القنوات الإخباريّة ذائعة الصيت تعرض تقريراً بدا لي ممتعاً فتابعته حتّى النهاية، لم أسأل نرجس عن اسم القناة التي تعمل بها، أينما ذهبت كان الناس يلوّحون لها، حتّى على حواجز التفتيش كانوا يرفضون تفتيش سيّارتها، ولا يطلبون بطاقتي الشخصيّة.

في بيت نرجس عادت بي الحياة إلى حيث توقفت يوماً، شاهدت التقارير التي أعدّتها، وتابعت مقالاتها على وسائل التواصل

الاجتماعيّ، ساعدتها قليلاً بتنضيد بعض الخطابات، في كثير من الأحيان أجبرتني نرجس على الشعور بالفخر لأنّني على صلة متينة معها، أو لأنّها تعاملني معاملة مميّزة جداً.

وددت أن أعرف عنها كلّ شيء، لكنني لم أسأل، انتظرت كثيراً لأسمع منها حكاية انطلاقها من بيت أهلها لإيجاد حلمها الكبير المتمثّل بدخول كليّة الإعلام، ثمّ زواجها من الرجل الخاطئ على حدّ وصفها، ليس سهلاً أبداً أن يتكلّم إنسان يراه الناس في قمّة النجاح عن فشله في أمور شخصيّة جداً، ليس صعباً أيضاً أن أفهم ذلك، فالكاتب يعرف دوماً ما يدور وراء الستارة.

لقد سألتها مرّة عن سبب اهتمامها بي، وعن تاريخ صلاحيّة هذا الاهتمام، ضحكت ولا أظنّ أنّ الضحك حينها يمكن اعتباره جواباً مقنعاً، أحدنا كان يكذب وكلانا يبتعد عن قول الحقيقة عندما يدور الحديث حول أمور تخصّ علاقتنا الغريبة جداً.

الفصل الخامس

أيقظني اتصال هاتفيّ وارد من نرجس، دفعني بكل ما أوتيت من عجلة لارتداء ملابسي بعد إغلاق السمّاعة مباشرة، نزلتُ إلى الشارع، القميص مفتوح وأشرطة الحذاء غير مربّطة، التفتُ إلى الجهة التي ستأتي منها نرجس بالسيّارة، فتحت الباب حين وصلت وركبتُ فوراً، قبل إلقاء تحيّة الصباح سألتُها: **"هل هو بخير ؟!"**

وصلنا المشفى العسكريّ، دخلنا إلى غرفة الاستعلامات، سألنا عن أسماء الإصابات الحديثة، بحثنا في غرف العناية المشدّدة، استسلمت لليأس قبل أن يرشدنا أحد الأطباء إلى الغرفة رقم (407)، استخدمتُ السلالم عوضاً عن المصعد، ركضْتُ في الممرّ بلا وعي أو إدراك، اصطدمْتُ بممرّض يحمل أكياس دمّ فأوقعها من يديه، تأكدتُ من رقم الغرفة ثمّ رميت نفسي داخلها، وجدتُ مصاباً بالمواصفات الشكليّة التي أعطيتها لذلك الطبيب، وضعتْ نرجس يدها على كتفي عندما أدركتني، التقطتْ أنفاسها ثمّ قالتْ بحسرة: **"أخشى أنّهم لم يتمكّنوا من إسعافه يا وهّاج!"**

تفقّدْتُ علبة السجائر، انتبهت لعبارة (التدخين ممنوع) قبل أن أفطن بأنّني في مشفى ولا حاجة لعبارة مكتوبة كي يكون التدخين ممنوعاً، عدت أدراجي خائباً مفكّراً بما قالته نرجس، في إمكانيّة

أن يكون غيابه عنّي هذه المرة أبدياً، مشيتُ ذهاباً وإياباً في الممرّ، أحصيتُ مربّعات بلاط الأرضيّة، أبعدت عن ذهني الأفكار السوداويّة إن لم نجده، نزلنا إلى الاستعلامات ثانية، أصوات أشخاص يلهثون تملأ الطابق، طالبين من الناس إفساح طريق للسرير الذي يدفعونه بسرعة إلى غرفة العمليّات، نظرتُ عن غير قصد حين أصبح السرير جنبي إلى وجه المستسلم تماماً لمصيره.

لقد كان يكفيني أن أرى جبينه الدامي من ارتطامه بما هو أقسى من التفكير بأنّ تلك النظرة ستكون الأخيرة أو ما قبلها، عينيه المغمضتين على مشاهد تفجير النقطة التي كانت تتسع بوجوده إلى دائرة أحلام كبيرة، أذنيه التي لن يستطيع أن يسمع بهما ندائي مهما علا و تحوّل إلى صدى، أنفه الذي أنساه البارود أن عطراً ما تمّ ابتكاره، فمَه المحشوّ بالتراب والنداءات العسكريّة للتقدّم والثبات، ووجهَه التي طمست الحرب ملامحه حتى تكاد تبحث بصعوبة فيها عنه، كان يكفيني ذلك لأتأكدّ أنّه المدفوع إلى غرفة العمليّات فأركض لا شعوريّاً خلف السرير إلى مكان يغصُّ برائحة الموت، أجبرني أحد الممرّضين على الوقوف عند الباب الذي يفتح على مصراعيه طالباً منّي الانتظار خلفه.

بذلت جهداً كبيراً لأدرك الأشياء من حولي، نرجس بجانبي تُجري في الدّقيقة اتصالاتٍ هاتفيّة أكثرَ مما أجريه في شهر كامل، أسدلت ستائر الخيال الدامس إلى الحدّ الذي جعلني أصدق

أنّ اللون الأسود هو جدّ الألوان كلّها، وأنّ الثقب الأسود الذي تحدّث عنه الفلكيّون سيذهب إليه هذا العالم بأسره.

وهّاج!

اليوم سنذهب لحضور المباراة النهائيّة، لقد أحضرت زوجاً من الأعلام والقمصان لي ولكَ، أخي سيبقى هنا للاعتناء بأبي حتّى عودتنا، نسيتُ إخبارك شيئاً هامّاً، هل تتذكر الفتاة التي تحدثت لك عنها في الجامعة الأسبوع الماضي؟ لقد صادفتها البارحة عند شبّاك التذاكر وابتاعت بطاقتين لحضور المباراة، دققتُ في كلتا يديها فلم أجد خاتماً، لذا أظنّ على الأرجح أنّها غير مرتبطة، لكنّها ابتاعتْ بطاقتين، صدّقني يا وهّاج إن كانت البطاقة الثانية لصديق أو حبيب سأجعله يشاهد مباراة تختلف تماماً عن التي سنشاهدها، ركّز معي قليلاً! سنقف بالقرب من باب الملعب الرئيسيّ قبل ساعة من بدء المباراة، ننتظرها ريثما تدخل، ثم نتبعها كي نجلس بالقرب منها ونرى لمن البطاقة الثانية، على أيّة حال أتوقّع أن تنتهي المباراة بنتيجة (2-1) لصالح فريقنا، وسيسجل هدف الفوز اللاعب ذو الرقم تسعة، ماهي توقعاتك؟

وهّاج!

أين أنت؟! دعك من صنع العشاء وتعال إلى هنا فوراً لسماع ما سأقوله لك! لقد قبلت الخروج معي هذا المساء، اتفقنا على الذهاب

لمشاهدة الفيلم العاطفي الذي صدر مؤخّراً وأحدث ضجّة كبيرة، كما تعلم أنا لا أفضّل هذا النوع من الأفلام لكنّني سأفضله بالطبع حين تكون بجانبي، لو كان الأمر عائداً لي لاخترتُ أحد أكثر الأفلام رعباً، كي تخاف كثيراً فأمسك بيدها وأشدّ عليها ثم أضمّها إلى صدري فتطمئن، لقد سرحت بخيالي أكثر من اللازم لكنّني أشعر بحماس لم أشعر به من قبل، إن اتصل أبي قل له أيّ شيء، إيّاك أن يشكّ بأنّني في موعد مع فتاة، الطقس سيكون بارداً الليلة لذا سأستعير معطفك الطويل، لكن في حال اشتد البرد كثيراً واضطررتُ لأن ألبسها إيّاه لا تحلم بعودته إليك، من الأفضل أن يكون هنالك القليل من المال في جيب بنطالك الذي سألبسه كي لا أجبر على غسل صحون المطعم إن كانت فاتورة العشاء الذي سنتناوله أكبر من المبلغ الذي ادّخره، بالمناسبة أين علبة العطر التي أرسلها لك والدك من لبنان؟

وهّاج!

اتصل بها أرجوك، لا تكن لئيماً إلى هذه الدرجة، إنّها لا تجيب على رسائلي منذ أيّام وتقطع كلّ محاولاتي للاتصال بها قبل أن أشرح لها الأمر، صدّقني لم أكن أقصد إخفاء ذلك عنها، كان يجب أن أخبرها منذ البداية أنّنا لا نملك دخلاً سوى ما يرسله ابن عمّي في القرية من آجار مزرعتنا الصغيرة التي لم يعد بمقدور أبي العمل بها، أنّه بعد العودة من الجامعة أذهب إلى

بيوت طلاب وطالبات المدارس لإعطائهم دروساً خصوصيّة في مختلف المواد لقاء أجر زهيد، أنّه لولا عملي هذا لكنت أشحذ المال على قارعة الطريق، أنّني وافقت على إعطاء مجموعة من الطالبات في الصف الثاني الثانوي دروساً في مادة الفيزياء، وأنّ واحدة منهنّ طلبت أن تكون الدروس في بيتها لأنّه الأنسب للجميع، كيف لي أن أعرف يا وهاج أن الباب الذي سأطرقه سيكون باب منزلها، وأنّها هي من سيفتح لي ذلك الباب؟

وهّاج!

هلّا أسرعت قليلاً! من غير اللائق أبداً أن نتأخّر عن موعد كهذا، سأرتدي ساعة اليد التي أهدتني إيّاها في عيد ميلادي، لقد كان أوّل عيد ميلاد لي يحتفل به أحد، لا بدّ أنّ الساعة ستكون فأل خير علينا، أنا متأكّد من أنّ الهديّة البسيطة التي صنعتها بيدي ستعجبها كثيراً لقد لاحظت أنّها لا تفضّل الهدايا التقليديّة، باقة الزهور ستحملها أنت حتّى نصل إلى منزلها، بعد أن أطرق الباب ستعطيني إيّاها كي أحملها بيدي، صحيح أنّها ليست المرة الأولى التي أدخل فيها ذلك المنزل لكنّ هذا الدخول مختلف جداً، أشعر بتوتر كبير لأنّ والدي لن يحضر بسبب سوء حالته الصحيّة، لقد اعتاد أبي حضور العديد من طلبات الخطوبة لأقربائي، فمن البديهيّ أن يمتلك معرفة أكثر بالكلام الذي يفترض قوله، أهلها ليسوا من النوع الذي يمكنك التحدّث معهم

ببساطة، لكنّني متفائل جدّاً لقد أخبرتني أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام، لا أدري سبب خوفك من الذهاب، هل ستقول لي أنّ البلّورة السحريّة قد أخبرتك بم سيحصل الليلة؟! اللعنة! إنّ ساعتي بحاجة لبطاريّة جديدة ولم أفطن أن أبدلها في طريق عودتي ليلة أمس، سأرتديها على أيّة حال، هل تظنّ أحداً سيلاحظ أنّها تشير إلى الواحدة والنصف؟

وهّاج!

أنا آسف جدّاً، لقد كنت على صواب، منذ اللحظة التي عرفت فيها اسم عائلتها كان يجب أن أضع حدّاً لنفسي وألّا أتقترّب منها أكثر، ما هذه السخافة؟ إنّ النعيم الذي تعيشه لا يمكن استبداله بالجحيم الذي أعيشه، القصر الذي تسكنه لا يمكن مقارنته بالشقة الصغيرة التي نسكنها، لكنّها كانت سعيدة معي بالرغم من كل شيء، أقسم لك أنها كانت تحبّني كثيراً، وربّما كانت مستعدّة للعيش معي حياة لا تشبه أبداً الحياة التي كانت تعيشها، إن كانت تعرف النتيجة كما تقول لماذا إذن تحمّست كثيراً عندما أخبرتها أنّني آت إلى منزلها لطلب يدها، لقد كنت مخطئاً عندما تجرّأت وحلمت بما لا أملك ثمنه، هل تظنّ أنّه ذنبي أم ذنبها وقوعنا في حبّ كهذا؟!

وهّاج!

الفكرة تبدو مرعبة جدّاً، فكرة العودة إلى البيت دون أن نتشاجر بسبب غسل الصحون ونشر الغسيل وترتيب غرفة الجلوس، فكرة القدوم بإجازة دون أن أجدك قد صنعت حلوى لا يرتضي الدجاج أكلها، لا زلت أفكر بإمكانيّة أن يكون أمر سفرك إلى لبنان مزحة، لا زلت غير مقتنع بالسبب الذي سيحرمني من رؤيتك حين أطلبها، لطالما كان باستطاعتك تغيير أبعاد الغرفة، تزيد مساحتها وتنقصها كما تشاء، تخلع عنها السقف وتبدله سماء إن أردت، لطالما أدهشني أنّك كنت تفعل ذلك بسهولة ودون عناء، تغلق الستائر وتفتحها، تستبدل لون الدهان بلون القميص الذي تلبسه، لطالما أخذت الخزانة في نزهة قصيرة، ووضعت على جبين السرير كأس ماء بارد قاصداً خفض حرارته، لطالما استيقظت من نومي و أنا أقول لك بصوت باهت: " أرجوك ارفع يدك عنّي "، لقد أخبرني أخي أنك تركت ثيابك كلّها في الخزانة، وطلبت منه أن يرتدي منها ما يشاء، و أنّك لم ترض أخذ أغراضك الخاصة، توقعت أن تأخذ معك البلّورة السحريّة ونبتة الصبّار على أقلّ تقدير، أرجو أن تحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة لأنني سأحرص على البقاء فيها مهمّا كلّف الأمر، كيف استطعت الخروج من هذه المدينة كما دخلتها بلا قلب يذكر، بلا أي شيء يثقل حقيبة سفرك؟!

وهّاج! وهّاج! وهاج!

أعادني نداء نرجس إلى ممرّ المشفى حيث خروج أيّ طبيب من غرفة العمليّات يضعنا أمام إجابتين لا ثالث لهما، ذهبت نرجس لإتمام التقرير الذي من المفترض تقديمه منذ الصباح للقناة، طلبت مني الاتصال بها في حال استجدّ شيء ما، وتركتني وحيداً مع وحش الانتظار المخيف الذي يفتح باب التفكير الموصد، ويسلّم رقبتي لمقصلة الوقت الصدأة، إن الوقت يتمدّد ليغدو أبداً أو يتقلّص ليصير دهراً.

تفاجأت بفتح باب غرفة العمليّات من قبل ممرّضة تستند إليها طبيبة يبدو أنّه قد أغمي عليها، أجلسَتْها على أحد المقاعد ونادت أحداً كي يحضر الماء، بجانبي كانت قارورة ماء تركتها نرجس قبل أن تذهب، حملتها واقتربت نحوهما، كان وجه الطبيبة مألوف جداً، بعد أن شربت الماء أشارت الطبيبة إلى الممرضة كي تعود إلى غرفة العمليات وتطمئنّهم أنّها بصحّة جيّدة، حاولت استغلال الفرصة بالسؤال عن وضع الضابط المصاب، فسبقتني إلى الكلام بصوت مرتجف:

"لا أظنّه سينجو يا وهّاج، إصابته خطيرة جداً، لم يوافق الأطباء على إجراء عمليّة جراحيّة له لأنّها عبارة عن تحصيل حاصل، حتّى إن نجحت العمليّة فربّما لن يستطيع المشي ثانية إنّهم يحاولون إنعاش أجهزته الحيويّة قبل اتّخاذ القرار، لا أحتمل رؤيته مستسلماً للموت أمامي، لا أطيق النظر إلى ساعة يده التي

لا زالت تشير إلى الواحدة والنصف، سأفعل كلّ ما بوسعي لإنقاذه، سأجري له العمليّة على مسؤوليّتي ومهما كلّفني الأمر من جهد ومخاطرة.

الفصل السادس

فتحت النافذة قليلاً، أخرجت سيجارة من علبة السجائر التي أصبح رميها في القمامة أفضل من استهلاكها، وضعت السيجارة في فمي، ثم بحثت عن الولّاعة حتّى وجدتها تحت الكرسيّ الذي احتضن جسدي المتعب ليلة الأمس، أشعلتها ونفثت دخانها من فتحة صغيرة صنعتها في النافذة لتجديد هواء الغرفة، ولكيلا يشتمّ أحد رائحة الدخان فيها؛

(تووووت تووووت تووووت)

رغم أنّني تردّدت كثيراً قبل أن أفعل ذلك لكنّني استجمعت جرأة كبيرة لأضغط على زرّ الاتصال، انتظرت قليلاً قبل إلغاء الاتصال ورمي الهاتف.

(تووت تووت تووت)

بصعوبة بالغة امتدّت أصابعي إلى المكان الذي استهلكته الممرضة لإعطائه الحقن الوريديّة، أردت أن أخبرها أنّه لم يكن يطيقها، لكنّ إيماءها لي بأنّها لن تؤلمه خدعني مراراً.

(تووووت تووووت تووووت)

إنّ هذا الصوت أفضل بكثير من ذلك الذي يخبرني بأنّ الرقم المطلوب مغلق أو خارج نطاق التغطية حاليّاً، قبل إعادتي

الاتصال للمرة الرابعة على التوالي تأكّدت أنّه لا فرق بين الرايتين، وبعد المحاولة الخامسة كدت أقسم أنّني لن أكرّرها.

(توت توت توت)

من غير المريح أبداً أن يصبح صوت ذلك الجهاز هو الشاهد الوحيد على أنّ حياته لا تزال مستمرّة، هنالك أملٌ ضئيل تلخّص باستنشاقه للهواء دون الاستعانة بالجهاز، الأوكسجين يجب أن يصل إلى خلايا جسمه، كما يجب أن أصل بدوري إلى أحدهم.

(توووت توووت توووت)

ارتعد جسمي عندما قطعه صوت شخص آخر يتحدّث لكن على ما يبدو أنّني لست المقصود، ظننت في بداية الأمر أنّني قد أخطأت في نقل الرقم إلى هاتف الممرّضة، ثمّ تبيّن أنّ شبكة الاتصال تحاول أن تزيد الموقف سوءاً عندما شبكتني بالخطأ مع مكالمةٍ أخرى، على أيّة حال لعنت الشبكة وأعدت الهاتف للممرضة دون أن أشكرها.

كدت أنهي سيجارتي قبل أن أسمع صوتاً خافتاً، قال لي بنبرة تأديبيّة: **"**ألا تعلم أن التدخين هنا ممنوع يا أستاذ**!"**.

رميت السيجارة من النافذة قبل أن ألتفت إلى الوراء لأرى الشخص الذي دخل الغرفة دون أن أنتبه، تبع ذلك القول وسبق التفاتتي قهقهة خافتة كمحاولة فاشلة للضحك بصوت عال،

استدرت لأتعرّف على هويّة القائل، فوجدتُ أنّه قد استعاد للتوّ وعيه وحسّ الفكاهة معاً.

امتنعت قدماي عن الحركة قبل أن اقترب من سريره لأجلس على حافّته، وارتجفت يدي قبل وضعها على جبينه الذي قبّلته الحرب قبلي فأدمته، تجمّدت عيناي وأصبح إغلاقهما أمام ذلك المشهد أصعب من إغلاق باب في وجه ريح عاتية، قبل أن تلد أحداهما دمعة أجبرني الموقف على إجهاضها.

الضمادات التي تغلّف جسده كهدايا عيد الميلاد وقفت عائقاً أمام اندفاعي لضمّه، لقد كنت مشتاقاً لأبدأ معه عراكاً ينتهي بانتهاء الأشياء التي يمكن أن نضرب بعضنا بها، ثمّ الجلوس جنباً إلى جنب والضحك على ما فعلناه بأنفسنا.

كانت الشظايا تملأ جسده كما تملأ النجوم سماء ليلة صيفيّة، لقد نجا من الموت بأعجوبة، سحبت الكرسيّ لأجلس بجانبه قائلاً: "التدخين ممنوع إذن!"

"بدلاً من أن تجلب لي ورداً وتتمنى لي الشفاء العاجل، تأتي وتدخّن في غرفتي يا للوقاحة!"

" أيّ شفاء عاجل تتحدث عنه يا صديقي؟! إذا حصل الشفاء بعد سنتين من الآن علينا أن نحمد الله ونشكره، انظر إلى نفسك هل تظنّ أنّ باقة ورد ستعجل شفاءك؟! إذا كان موضوع الشفاء متعلّق بالورد سأجلب لك حديقة بأكملها، أنت أقرب لكونك ميّتاً

من كونك على قيد الحياة، ألا ترى كيف تلفّ جسدك الضمادات كالمومياء ؟! "

ضحكنا بشدّة قد غابت كثيراً، ثم تابعت حديثي كي أمنع عن كلينا البكاء الذي يتلو الضحك الغزير:

"الحمد لله على سلامتك يا حسن"

"الحمد لله على سلامتك أنت أيضاً، لقد وفيت بوعدي لك يا وهّاج، لقد عدت سالماً لأهنّئك بخروجك من السجن"

"صحيح، عودتك بهذا الشكل أكبر دليل على الوفاء"

"هل تصدّق؟ "

"إن لم أصدّق أنا ما ستقوله، فمن غيري سيفعل؟"

"عندما اشتدّت المعارك، أصبح السبيل الوحيد لعودتي من هنالك هو أن أعود محمولاً على الأكتاف، في تابوت خشبي مزيّن بعلم الوطن، سأل رفاق السلاح بعضهم البعض عن الأمنية الأخيرة، فتمنيت أن أراك لمرّة أخيرة، وأجلس معك لتحدّثني عن سرّك الخطير قبل أن أعيد إلى الله أمانة التراب"

قاطع حديثنا طرق باب الغرفة ودخول الطبيب المختصّ برفقة نرجس وممرّضتين:

"يا إلهي! الحمد لله! متى استعاد بطلنا وعيه؟"

"قبل دقائق قليلة"

أجرى الطبيب بعض الفحوص السريريّة، تكلّم مع الممرضتين كلاماَ طبيّاً أفهم معنى بعضه، ثم قال باستغراب ودهشة أكبر من التي أبداها عند رؤية حسن مفتوح العينين ضاحكهما:

"أشمّ رائحة دخّان في الغرفة!"

نظرت إلى حسن نظرة خبث وحده يعرف معناها، حاولت إبعاد التهمّة عنّي فقلت:

"لقد توسّل لي كي أعطيه سيجارة يا دكتور، أعلم أنّه لا يفترض بي الاستجابة لمطلبه، لكنّني ضعفت أمامه وأشعلت له واحدة"

"وهّاج لا تكذب! أنت من دخّن السيجارة وقمت برميها من النافذة لأنّني أرعبتك"

ضحكت نرجس بينما لا يزال الطبيب في حالة من الاستغراب والدهشة، اقترب منه وقالت بصوت مسموع:

" الآن يمكنك القول بأنّ الوضع على ما يرام"

غادر الطبيب الغرفة مع زوج الممرضات متمنيّاً أسرع الشفاء وأقربه، لم يتبقّ إلا ثلاثتنا في الغرفة، استبدلت نرجس باقة الزهور البيضاء التي كانت قد جلبتها البارحة بأخرى أجمل، ونقلت الإناء الزجاجيّ الموضوعة فيه إلى جانب النافذة، فقال حسن مازحاً:

"انظر إلى الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون مرضاهم"

"لا فرق بيني وبين وهاج يا حسن، إنّني أتيت بالزهور نيابة عنه، لقد كان هنا منذ دخولك إلى غرفة العمليّات، ولم يسمح حتى لأخيك بأخذ مكانه كي لا ينشغل عن دراسته، نام على الكرسيّ بضعة ليال، ورفض الذهاب إلى المنزل لينال قسطاً من الراحة قبل أن تصحو من الغيبوبة"

"اسمع يا حسن! اسمع ما تقوله لك نرجس!"

"كنت أعلم أنّك ستبدأ هذا يا وهّاج، لم يتبقّ إلّا أن تقولي أنّه أسعفني من أرض المعركة وأتى بي إلى هنا على ظهره"

"لو كان بمقدوري ذلك لما فوّتُّ على نفسي جعلك ممتناً لي بقيّة عمرك، هيا بنا يا نرجس، يبدو أن بقاءنا معه مضيعة للوقت، سنذهب لتناول الطعام ونتركه هنا وحيداً جائعاً"

"كيف يطاوعك قلبك لتناول الطعام من دوني يا ظالم؟! أتدري يا نرجس؟! لو وقعت أسيراً في يد الأعداء لكان أصعب عذاب لي هو وضع الطعام أمامي دون السماح لي بالأكل، في كلّ المعارك التي خضتها كنت أخشى على نفاذ الطعام أكثر من نفاذ الذخيرة، أنا مستعد للمحاربة بالعصا والأحجار لكنّي لست مستعدّاً للبقاء يوماً واحداً بدون طعام"

"ألم أقل لك يا نرجس أن حسن لا يملك قلباً؟ إنّه يملك معدة إضافيّة بدلاً عنه"

"هل تذكر مطعم المأكولات الشعبيّة القريب من باب الجامعة الرئيسيّ يا حسن؟ قمنا بزيارته منذ فترة أنا ووهّاج قبل أسبوع، لكنّ وهّاج رفض تناول شيء بحجّة أنّه لا يأكل هناك إن لم تكن تشاركه، فاكتفينا بإلقاء التحيّة على صاحب المطعم الذي تسلّم أولاده العمل فيه من بعده، وأصبحت مهمّته الوحيدة هي مراقبة الزبائن، واستذكار القدامى منهم أمثالك أنت ووهّاج، سأعتبرها خيانة كبرى إن ذهبتما إليه من دوني بعد أن تخرج من المشفى"

"فيما مضى حين كان هذا المطعم جزء من حياتنا اليوميّة تقريباً، كان حسن يتلذذ بتناول الطعام هناك لدرجة أنه قال لي ذات يوم أنه لو كان كاتباً أو شاعراً مثلاً لما استطاع الكتابة إلا على إحدى طاولات ذلك المطعم بين روائح الطعام الشهيّة وأصوات طرق المعالق بالصحون"

"من جلب باقة الزهور الثانية يا وهّاج؟ لم تكن هنا في الأمس!"

"اقتربي يا نرجس، سأهمس لك باسم صاحبة الباقة"

"إنّه سرّ إذن، سأسأل الطاقم الطبي واحداً واحداً عن تلك الباقة، إن لم تقل لي من هي التي أتت لي بها، وبما أنّك أتيت على ذكر الأسرار، ما هو السرّ الذي قلت بأنك ستخبرني به؟"

"سأخبرك به لاحقاً أيضاً"

"إذن لا تريد الحديث أمام نرجس؟ "

"لا علاقة لنرجس بالموضوع، الآن ليس هو الوقت المناسب فقط"

"بعد قليل سأذهب لمتابعة العمل، يمكنكما الحديث عن كلّ الأسرار، المهمّ الآن هو أنّك استعدت وعيك وانتصرت على الغيبوبة التي توقّع الجميع أن تدوم طويلاً"

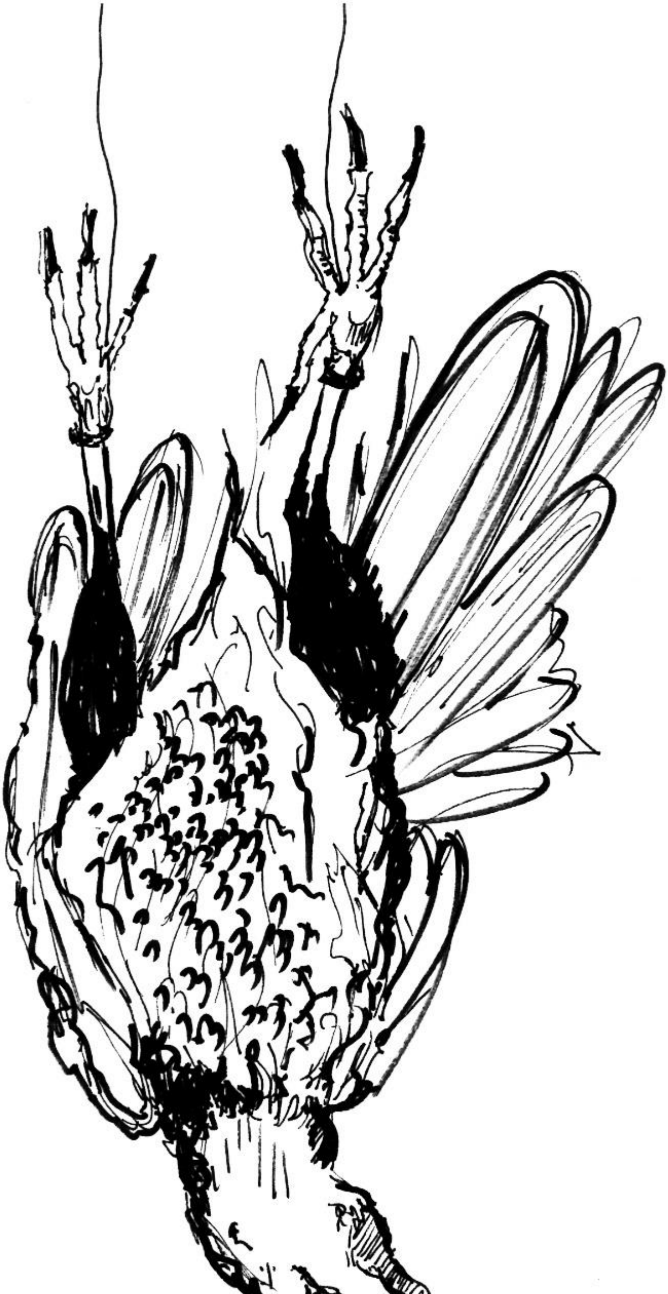

الفصل السابع

ياسمين!

كلّ الأصوات التي أصدرها من كانوا حولي في قاعة الانتظار سمعتها على أنّها صدىً لاسم ياسمين، ناديت مضيفة الطيران آنسة ياسمين، وأخبرت موظّف المطار أنّ وجهتي هي ياسمين، لقد استطاعت ياسمين بنصف التفاتة أن تعيد لي كامل العمر الذي فات دون أن أراها.

منذ أن دخلَتْ ياسمين قاعة الانتظار ألغتْ كلّ احتمال لبقائي هادئاً طيلة الوقت المتبقّي على إقلاع الرحلة، رجل متأنّق بدا لي شكله مألوفاً جداً، وضع يده على كتفها ثمّ أخرج هاتفه لإجراء مكالمة حين توسّط القاعة، فتأكدت أنّه زوجها ومدير أعمالها.

من الواجب الاعتراف أنّ ياسمين لا زالت تحتفظ بقدر كبير من الجمال، وهذا لا يمكن إلّا أن أتوقّعه، أمعنت النظر في جزء وجهها التي تستطيع عيناي كشفه بالقفز فوق رؤوس الناس وأكتافهم واصلة إليه، الانتفاخ البسيط في وسط جسدها والذي لا يمكن للكثيرين ملاحظته أشار إلى جنين تحمله في جوفها، فاستذكرت بوضوح فترة حملها بمريم، حينها لم يصدّق أحد أنّ

ياسمين حامل، لأن مظاهر الحمل كانت شبه غائبة عنها، وهذا ما يتمنّاه معظم نساء العالم طبعاً.

صحيح أنّ ألم الولادة من أشدّ الآلام التي يستطيع الإنسان احتمالها لكنّني أقسم بأنّ الوقوف حينها على بعد أمتار منها مكتوف العواطف واليدين فاق ذلك ألماً.

لقد قاومت ببسالة رغبتي الشديدة بالذهاب إليها، وإخبارها الحقيقة التي تجهلها، أو على الأقلّ تعزيتها بوفاة والدتها وتهنئتها بزواجها من رجل تسبّب – بشكل أو بآخر – بإبعادي عنها وعن مريم.

جميع محاولاتي للفت انتباهها باءت بالفشل الذريع، حتّى انفجر اسمها في فمي لتملأ شظاياه القاعة بمن فيها من المنتظرين، لم أصدّق أنّني ناديتها، لا أدري كيف تجرّأت على فعل ذلك، أعلم أنّه من الحماقة النداء لشخص ليس باستطاعته الإجابة على النداء.

استدارت ياسمين باحثة عن هويّة المنادي، فالتقت أعيننا كما لم تلتق من قبل، الثواني القليلة التي تبعت تلك النظرة كانت أطول من السنين التي أمضيتها في السجن، لقد اختصرت تلك النظرة كلّ ما يمكن قوله.

في البداية كانت عيناها مغمّستين بالدهشة، ربّما لأنّها لم تدرك بعد أنها تنظر إلى من كانت تظنّه ميّتاً أو مفقوداً، لا يمكن إلقاء

اللوم عليها أبداً بهذا الخصوص، لا أريد الدفاع عنها لكنّ الضغوط التي عانتها في الفترة التي غبت فيها كفيلة بأن أغفر لها كلّ الظنون، بعد أن تحوّلت الدهشة إلى سؤال اضطررت لهزّ رأسي كأنّما أجيب بذلك: " أنا وهّاج يا ياسمين ".

المرّة الوحيدة التي رأيت فيها عينيّ ياسمين كئيبتين إلى هذه الدرجة هي عندما مات والدها، كنت أظنّ ياسمين لا تعرف ما هو البكاء، أو أنّها أجرت عمليّة جراحيّة استأصلت فيها أصل الدمع من عينيها، لقد كانت جديّة معظم الوقت، تتعامل مع مجريات يومها بصلابة غريبة، تستطيع إخفاء مشاعرها بشكل لا يصدّق، وأظنّ أن ذلك ساعدها كثيراً لتكون ناجحة في عملها، ففي أسوأ اللحظات التي مرّت بها الشركة كانت تجيد التعامل مع الأمور كما لو أنّ كل شيء على ما يرام.

ندمت كثيراً لأنّني فعلت ذلك، أقصد لأنّني ناديت اسمها علناً، عندما رأيت في عينيها تلك الفوضى من المشاعر والتي تفوق الفوضى التي كنت أصنعها في المنزل دون أن تضجر مني، عيناها كانت تسأل عن كلّ المسائل التي بقيت معلّقة الحلول في غيابي وحضور المآسي والمصائب، حاولت تهدئتها قليلاً فرفعت لها يدي المرتجفة كأيدي العجائز ولوّحت لها، عاصفة المشاعر التي اجتاحت ذلك الموقف تكفي لإلغاء كلّ الرحلات الجويّة في المطار، من الظلم الكبير التحدّث عنها أصلاً.

استطعت من حركة شفاهه أن أعرف ما سألها زوجها حين أنهتْ التفاتتها وقطعتْ وصال العيون: "هل هنالك شيء يا حبيبتي؟" لتردّ ياسمين بالإجابة التي لا تملك سواها: "ظننت أنّ أحداً قام بمناداتي".

ارتديت النظارة الشمسيّة ووضعت القبعة على رأسي، ثمّ جلست أنتظر النداء الذي ملأ القاعة بعدها: "على السادة المسافرين على متن الرحلة رقم (407) المتّجهة إلى تركيّا التقدّم نحو البوّابة رقم (9) استعداداً للصعود للطائرة".

حملت حقيبتي الوحيدة ووقفت بالطابور، لتأتي ياسمين وتصطفّ خلفي تماماً، ازدادت حدّة أنفاسي مع كلّ خطوة تقدّمتها فتبعت قدماها قدماي، ربّما سمع كلّ من في الطابور صوت قلبي الذي بدأ ينبض خارج جسدي، فكنت أجبن من الالتفات إليها ومصافحتها بعد كلّ تلك السنوات، أجبن من قول ما شعرت أنّه من المفترض أن يقال.

تخيّلت يدها تربّت على كتفي، تدفعني كي أتقدّم في الطابور، تمنّيت ألّا ينتهي ذلك الطابور، ويطول بطول الحفرة التي صنعها القدر بيني وبين ياسمين، نبرة صوتها المرتجف لا تزال تدق رأسي كمطرقة حين نادتني لأتقدم إلى الأمام بينما كنت شارداً وأصبح الطابور من أمامي فارغاً: "هلّا تقدمت قليلاً من فضلك".

لا أحد يعرف ياسمين كما أعرفها، ولا أحد يراها كما أراها، حتّى صوتها لا أحد يسمعه كما أسمعه، موظّفوها كانوا يعتقدون

أنها امرأة قاسية القلب مجرّدة تماماً من العواطف، إصرارها على إتقان العمل كانت ينبئ أنّ ياسمين خلقت لتتسلّم إدارة شركات.

على العكس تماماً، إنّ الموضوع برمّته عبارة عن لبّ وقشرة، اللبّ هو ياسمين التي تبكي بسخاء لسماع الموسيقى الكلاسيكيّة وتحزن على موت شخصيّة ثانويّة في فيلم دراميّ، وتبتهج لتفتح أزهار الصبار على شرفتها، أمّا القشرة فهي ياسمين التي تعاقب موظفاً لتأخّره عن العمل، وترفض منح إجازة لموظّفة دون مبرّر، وتلقي خطاباً شديد اللهجة أمام جمع غفير، باختصار شديد ليس من السهل أبداً أن يعرف أحد ما تشعر به ياسمين إن لم يكن على معرفة جيّدة بها.

لم يسبق لي أن ركبت طائرة، صنعت واحدة ورقيّة، لكنّ الرياح كانت لطيفة أكثر من اللازم فلم تساعدها على الطيران، انتظرت كثيراً قبل أن تأتي العاصفة لتأخذ معها الطائرة والفرحة القصيرة التي رافقت صناعتي لها.

صعدت الطائرة، لم يكن ينقص تلك الصدفة إلا أن يكون مقعدي قريب من مقعدها بحيث أستطيع مراقبة ما تفعله في حين لا تستطيع هي القيام بذلك إلّا إذا التفت بجهة اليسار وإلى الخلف قليلاً.

فكّرت مليّاً بطريقة ما أخبرها من خلالها أنّني ذاهب إلى تركيا لرؤية مريم، انتظرت حتى تبيّن لي أنّ زوجها غارق في النوم،

وكتبتُ على ورقة صغيرة: "اتبعيني إلى الممرّ المؤدي إلى الحمام"، نهضت من مكاني ومررت بجانب مقعدها، رميت الورقة إليها ثم تابعت طريقي إلى الممرّ، قلّم الانتظار أطراف وجهي قبل أن استشعر قدومها.

كلّ الصفات التي يمكن لوجه امرأة حزينة حمله اجتمعت في وجهها الجميل، لتقول لي وهي على عتبة البكاء: "حمداً لله على سلامتك يا وهّاج، لم أتوقع رؤيتك ثانية!"

ارتعد جسمي كلّيّاً عندما همّت بضمي لكنها تراجعت عن قرارها، فاندفعت أنا لضمّها، الدمع حضر بقوّة في تلك اللحظات، استجمعت قليلاً من قوتها لتستفسر عن سبب سفري إلى تركيا، تردّدت قليلاً قبل إخبارها أنّني ذاهب لرؤية مريم، كلّ ما في وجهها سألني حين أخبرتها: "ماذا تقول؟!"

أخبرتها بكل ما أعرفه ولا تعرفه، بأنّ سيلين أخذت مريم قبل انتهاء دوام المدرسة، بأنّ التهمة التي رمتني خلف القضبان كاذبة، بأنّ حسن أصيب إصابة خطيرة كادت تنهي حياته.

استمرّ حديثي معها إلى أن أيقظني النداء الصادر من مكبّر الصوت في الطائرة معلناً وصولنا بخير وسلامة، نظرت إلى ياسمين كانت تضع سماعات الرأس، وددت لو أن ما حلمت به كان حقيقة، وددت لو أستطيع إخبارها بأنّه يفترض أن تكون برفقتي الآن.

كانت ياسمين تعود متعبة من العمل معظم أيّام الأسبوع، تستلقي فور وصولها على السرير، تطلب منّي إطفاء الأنوار وعدم إحداث ضجّة، فأنتظرها ريثما تغرق في النوم لأحادثها:

(ياسمين! أنت نائمة الآن أليس كذلك؟ إنّه من الغباء طرح سؤال كهذا لكنّني لا أقاوم رغبتي في الحديث مع النائمين، إنها فرصتي الوحيدة لقول ما أريد دون مقاطعة أو اعتبار كلامي وجهة نظر، هل تذكرين أوّل مرة تحدّث فيها إليك وأنت نائمة؟ أدهشك ذلك الحديث رغم أنّك لم تتذكري منه شيئاً في الصباح، نسيتُ بعدها أن أعلمك بأنّني اعتزلت كثيراً من الأشخاص لأنّهم لا يعرفون ما معنى ذلك، أو لا يجيدونه عندما طلبت منهم أن يحادثوني بعد نومي، كانوا يعتبرونه هراءً يتّهمني بالسخافة لفعلي ذلك، أحدهم سألني ألا يشبه حديثك مع الناس بعد نومهم الحبّ الذي نعلنه للراحلين؟ كلاهما بلا جدوى يا وهّاج، بطريقة ما كاد أن يقنعني لولا الراحة التي لا يمكنني الشعور بها لو تحدّثت بكلّ ما تحدّثت به قبل نوم الذين تحدّثت إليهم، ماذا أنتظر؟ إنّني أنتظر في كل ليلة أن تنامي باكراً كي تمنحيني فرصةً للحديث أكبر، وأنتظر بفارغ الصبر أيضاً استيقاظك لأتأكّد أنّك لم تكوني مستيقظة عندما كنت أتحدّث بطلاقة، ياسمين! أنت لم تنامي بعد؟! رأيتك تفتحين عينك اليمنى قليلاً وتبتسمين، لقد خدعتني هذه المرّة، وربّما في كلّ مرّة يا ياسمين.)

تخيّلي يا نرجس، وأرجوك أن تتخيّلي الموقف جيداً، أنا وياسمين على متن طائرة توصلنا إلى غايتين مختلفين تماماً، يفصل بيننا بضعة أمتار وسنين من الصعب جدّاً – إن لم يكن مستحيلاً – تجاوزها.

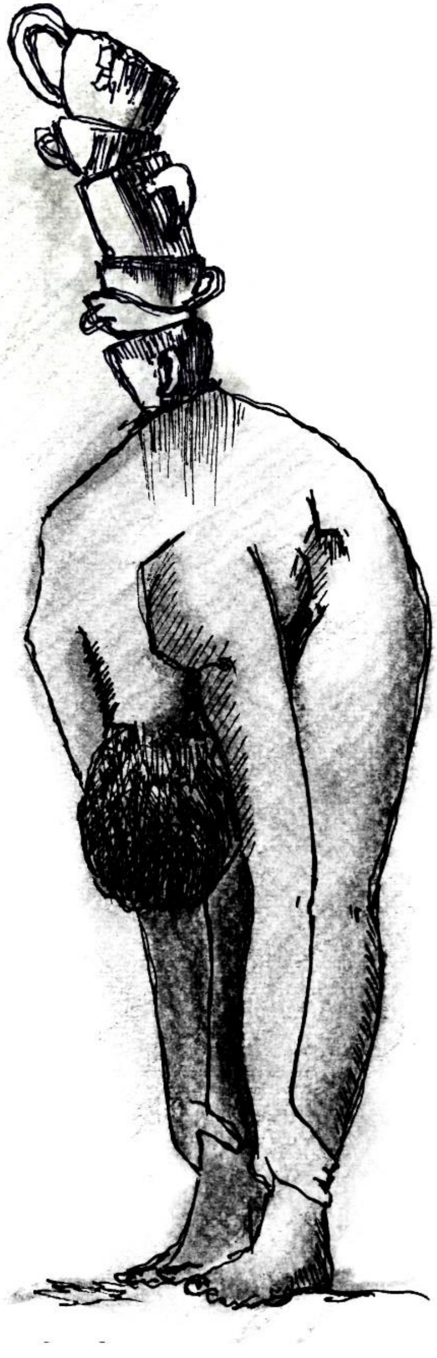

الفصل الثامن

اجتمعت في الأمس بنرجس وصديقتها إيلاف التي ستوصلنا إلى الجمعيّة الخيريّة التي ترعى الأطفال الذين فقدوا عائلاتهم في الحرب، إيلاف تعمل لصالح اليونيسيف ولديها صلاحيّات واسعة للوصول لأيّ مكان نرغب الوصول إليه، من اللحظة التي تعرفت فيها على نرجس أذهلتني بعلاقاتها الممتدّة لأبعد مكان يمكنني تصوّره ، لو علمت أنّ العمل في مجال الإعلام سيخلق لي كل تلك العلاقات لفكّرت بجديّة قبل أن أدرس الصيدلة، يكاد لا يخطر ببالي مكان إلا وتكون نرجس على معرفة بأحد هنالك، دائرة العلاقات والمعارف تلك ساعدتني كثيراً، والشكر هنا يعود لحسن، حين أكّد لي في المشفى أنّه لا يمكن لأحد مساعدتي أكثر من نرجس في البحث عن مريم.

بينما كنت أسوّي بعض الأمور في سورية تحدثت نرجس مع إيلاف بخصوص التقرير الإعلاميّ الذي ستعدّه عن حياة اللاجئين في المخيّمات، التقرير سيكون الذريعة التي ستدخل نرجس بها إلى المخيّم دون أن يعترضها أحد، ويمكنها من خلاله التحدّث لأكبر عدد من الموجودين هناك.

حاولت نرجس الوصول إلى أسماء الذين توافدوا إلى المخيّم بالفترة الزمنيّة التي تبعت تفجير مدرسة مريم بقليل، لكنّ ذلك

ليس بالأمر السهل أبداً، عيون القائمين على أمور المخيّم لم تكن مغمضة لتسمح بتدخّل واضح بما هو بعيد من وجهة نظرهم عن غرض التقرير، فلجأت إلى الخيار الثاني، وهو البحث عن مريم وسيلين شخصيّاً، رغم أنّه من غير المنطقيّ أن تبحث عن طفلة مع امرأة بين مئات آلاف السوريّين المتواجدين في مخيّمات اللجوء بتركيا بناء على حدس آمنت به نرجس، بعد إخبارها بمضمون الرسالة التي أسلمها لي شقيق حسن عند خروجي من السجن.

لم أكن أملك أيّ صورة لسيلين، الصورة الوحيدة التي كانت معي هي صورة أصابعنا المتشابكة، كانت هديّة عيد ميلادي الأوّل الذي كانت فيه سيلين معي، والتي كتبت على ظهرها بعد أن حلّ الفراق: "من أفلت يده أولاً؟!".

المواصفات التي أعطيتها لنرجس والتي لا تكفي طبعاً للتعرّف على شخص ربّما تغيّرت ملامحه كثيراً عن آخر مرّة رأيته فيها، كلّ ما تملكه نرجس من وسائل من شأنها المساعدة في عملية البحث كانت صورة فوتوغرافية لي مع مريم وهي تحمل بيدها الدمية التي جلبتها لها في عيد ميلادها الأخير، الذي أمكنني حضوره قبل دخولي السجن، تلك الدمية التي طلبت من صديق قديم امتهن صناعة الهدايا والدمى اليدويّة صنعها بمواصفات شكليّة تشبه مريم كثيراً، وقصدت بذلك أن تشعر مريم حين تنظر للدمية كما لو أنّها أخت لها.

عمليّة البحث تلك كانت أشبه بعمليّة بحث عن إبرة ذهبيّة في كومة قشّ، لكنّ نرجس قبلت به دون أن تفكر بالتعب الذي سينالها من ذلك، رغم أنها فعلت قبل ذلك ما يدفعني لشكرها بقيّة العمر.

مضت أيّام أجرت فيها نرجس مقابلات كثيرة مع لاجئين قد هربوا من حتفهم إلى حتف مؤجّل، كان اليأس يدنو من نرجس فتبعده بما ملكت من الأمل بأنّ سيلين موجودة في إحدى الخيام التي تتنقل بينها تحت مظلّة التقرير الذي تعدّه للقناة.

راقبت نرجس الأطفال الذين يلعبون بين الخيام، وحدّقت في وجوههم طويلاً، لم تجد يقودها إلى مريم، بينما كانت تنظر للصورة مليّاً قام أحد الأولاد بسرقة الصورة والركض بها.

جنّ جنون نرجس عندما رأته يلوّح بها، فأخذت تركض خلفه وتناديه كي يعيدها، كانت تعي جيّداً أنّ فقدان هذه الصورة سيصعّب عملية البحث أكثر، بالإضافة إلى نقضها العهد للمحافظة عليها وعدم إضاعتها.

الولد كان يركض أمامها مع عدد من رفاقه، تعثّرت نرجس وسقطت أرضاً، فغابوا عن ناظرها، المصوّر الذي رافق نرجس في ذلك التقرير لا يملك لياقة تمكّنه من اللحاق بهم، لذلك أنزل الكاميرا عن كتفه وجلس ينتظرها ريثما تنتهي من مطاردة الأولاد الأشقياء.

رقّ قلب أحد أولئك الأولاد حين رآها تنفض الغبار عن ثيابها باكية، تحدّث مع رفاقه كي يعيدوا لها الصورة ويقدّموا اعتذارهم، توقّفت نرجس عن البكاء حين رأتهم قادمون باتّجاهها، أكبرهم سنّاً أو ربّما فقط جسداً مدّ يده لها وأخفض رأسه معلناً أسفه.

لاحظ الأولاد أنّ الصورة تعني لنرجس الكثير حين ضمّتها إلى صدرها، فأخبرتهم أنّها بحاجة ماسّة لها كي تجد (مريم) الطفلة التي تظهر في الصورة، أحدهم قال بأنّه يمكنهم تقديم مساعدة لها في البحث وأيّده الجميع، فوعدتهم نرجس بأشياء كثيرة إن وجدوا لها مريم بشرط أن يبق الأمر سرّاً بينهم، ولا يخبروا عن أمر الصورة والطفلة أحداً.

تحمّس الأولاد لفكرة نرجس، فطلبت من رفيقها المصوّر أخذ صورة جماعيّة لفريق البحث الذي قد تشكّل لتوّه، مررت نرجس الصورة على الأولاد كي يمعنوا النظر في وجه مريم، جميعهم لم يتعرّفوا عليها، وأجمعوا على أنّهم لم يشاهدوها قطّ في المخيّم.

أحد الأولاد طلب أن ينظر إلى الصورة مرّة أخرى، اتّسعت عيناه ثمّ ابتسم، اقترب بفمه من أذن رفيقه وهمس له شيئاً فضحك الأخير، ونكزه كي يسكت، انتبهت نرجس لسلوكهم الغريب فطلبت منهم أن يخبروها ما وراءه، تحدّث الولد الذي ضحك:

"لا شيء مهمّ يا آنسة، إنّ رفيقي يرى أنّ الدمية التي مع الطفلة تشبه إلى حدّ كبير دمية مع امرأة مجنونة في المخيّم، تعيش في

خيمة بمفردها مع دميتها تلك، تغنّي طوال اليوم:" مريم مريمتي.. عيني مريما.. والقلب مجروح.. بدو مرهما.."

ضحك الأولاد الأشقياء جميعاً عندما انتهى صديقهم من الغناء بصوته القبيح.

طلبت نرجس من الأولاد أن يرشدوها إلى خيمة تلك المرأة، فتشاوروا فيما بينهم، ثمّ قرّروا إيصال نرجس إلى مكان قريب من الخيمة بحيث لا يمكنها رؤيتهم، معلّلين ذلك بأنها ستطاردهم كالعادة وترميهم بالأحجار.

على باب خيمة لا تتسع إلا للهمّ حين يخفّ أو للذنب حين تقبل التوبة عنه، امرأة تحمل بين ذراعيها دمية كما تحمل الأمّ طفلها الرضيع، تهزّها يمنة ويسرة، تغنّي لها بصوت الحزن المتراكم ما غنّاه الأولاد الأشقياء.

حين اتّصلت نرجس بي وأخبرتني أنّها تحمل لي خبرين أحدهما جيّد والآخر سيّء، طلبت منها أن تبدأ بالجيّد، فأخبرتني أنّها عثرت على سيلين، فتمنّيت لو طلبت منها البدء بالسيّء، لأنّني عرفت فوراً ما هو.

لم يكن سهلاً على نرجس التعامل مع سيلين، شتمتها وحاولت التهجّم عليها لأنّها اقتربت من خيمتها، قبل أن تستطيع نرجس بذكاء عاطفتها ولطف كلامها أن تهدّئ من روع سيلين وتقنعها برغبتها في تقديم المساعدة الحقيقيّة.

بالنسبة لأمور كهذه لم أقلق أبداً على نرجس، فقد لعبت خبرتها في مجال الإعلام دوراً مهماً في عملية البحث الشاقّة، المهمّة الأصعب التي ظهرت بعد عثورها على سيلين هي امتناعها عن التحدّث حول ما جرى معها، أو عن الطريقة التي أتت بها إلى المخيّم.

اختراق الهالة التي تصنعها سيلين حول نفسها ليس سهلاً، عندما تحاول التعرّف عليها تشعرك بأنّك ستتعرّف على آخر شخص في حياتك، أي أنّها ستقوم بقتلك لمجرّد محاولتك ذلك، عيناها تنظران إليك بغضب جامح، فيدفعك ذلك للابتعاد بأقصى سرعة.

ما جعلها تبدو عدائيّة الظاهر إلى حدّ ما أنّ الحيّ الذي تسكنه سيلين لا يمكنك مغادرته دون أن يخلق أحد أبناؤه مشاجرة معك، تصرّفها بشراسة مع أبسط الأمور كان سلاحاً شفّافاً، وجدار عزل لا مرئيّ عن كلّ أذى يمكن أن يسبّبه شخص ما.

إنّ ذلك كلّه عبارة عن قشرة، أمّا لبّ سيلين فهو امرأة تدفعك للحزن والفرح بطريقة لا يمكن لأحد أن يدفعك بها.

تحدّثت نرجس مع سيلين بلطف كبير، تقرّبت منها قدر المستطاع، لسبب أجهله أو أتجاهله لم أشأ أن تعلم سيلين أنّني من أرسلت نرجس للبحث عن مريم، خفت من ردّة فعل غير متوقّعة من قبل سيلين، خوفاً لا أدري عنه سوى أنّه بلا داع.

جميع الذين يقبعون في المخيّمات سئموا من عدسات المصوّرين ودفاتر الصحفيّين وهراء الإعلاميّين، أًصبحت العداوة بين ساكني المخيّم وزائريه كالعداوة بين أطراف الحرب التي هربوا منها، يرفض معظمهم صغيراً كان أم كبيراً بشكل قاطع أن يأتي مصوّر ويصوّر معاناته ثمّ يعود بها إلى الجهة التي قدم منها لينال جائزة ماليّة تكفي لإطعام نصف المخيم، باتوا يدركون الحقائق ولا تغرّهم الشفقة المصطنعة التي يبديها القادمون من كل حدب وصوب.

استغلّت نرجس الموقف، وبدأت العمل مع إيلاف لصنع تقرير إعلاميّ هو الأوّل من نوعه فيما يخصّ معاناة اللاجئين في المخيّمات، تسلّط الضوء من خلاله على الذين يمدّون لهم يد العون بغية تحقيق مكاسب شخصيّة، الذين يعطون طفلاً لعبة ويصوّرونه ألف صورة حين يتسلّمها، ويدفعونه لشكر المؤسّسة أو الجهة التي قدّمت له هذه الأعطية السخيّة.

ما يشغل بال سيلين بعيد كلّ البعد عن ذلك، بعد عدد لا بأس به من زيارات نرجس للمخيم قاصدة سيلين على وجه الخصوص، كسبت من خلالها ثقة سيلين ومودّتها، في كلّ واحدة من تلك الزيارات كانت نرجس تسأل سيلين إن كانت بحاجة إلى شيء ما كي تجلبه لها في اليوم التالي، تجيب سيلين: " أريد.. أريد.. لا.. لا أريد شيء ".

ذلك التردّد كان يترك خلفه الكثير من علامات الاستفهام، فتعيد نرجس السؤال مترجيّة إيّاها أن تبعد الخجل والحرج، لكن سيلين كانت عنيدة، لا تفصح عمّا تريده ولا تطلبه.

على أمل أن تقصّ سيلين ما حدث معها قبل قدومها إلى المخيّم كانت تعيش نرجس تنام وتصحو، في الحقيقة إنّي أقدّر لسيلين هروبها الدائم من باحة الكلام الواسعة، كما أقدّر لنرجس غيابها عن حصص النوم، وصبرها المديد على ذلك الهروب، الباب الذي وصلت له نرجس لا يُفتح إلا إذا أسلمت سيلين مفتاح قلبها ولسانها إلى نرجس.

قبل يوم واحد من حجز نرجس مقعد لي بأوّل رحلة جويّة متّجهة إلى تركيا، وغرفة في الفندق الذي تقيم فيه مع طاقم عملها، سردت لي القصة التي ابتكرتها سيلين عندما تجرّأت نرجس واستفسرت عن سبب تعلقها بالدمية وغنائها أغنية تحمل اسم مريم، ربما لم تتقصد سيلين الكذب لكنها لجأت إليه كي تحتفظ لنفسها بجزء من الحقيقة.

لقد ماتت عائلة مريم في الحرب، والدة مريم كانت صديقة سيلين المقرّبة، لم يتبقّ لمريم في هذا العالم سوى سيلين، فتولّت سيلين أمر رعايتها، وباعت كلّ ما تملكه كي تؤمّن المال الكافي للسفر خارج البلاد بعيداً عن ضجيج الحرب وشظاياها، لكنّها تعرضت لعملية نصب وتمّت سرقة مالها من قبل الشخص الذي وعد

بإيصالها لشواطئ اليونان، ومن ثمّ إلى البلد الأوروبيّ الذي تختاره.

لم تكن نرجس ساذجة لتصدّق قصة سيلين كاملة، لكنّها أظهرت عكس ذلك، فحاولت أن تسأل سيلين أسئلة من شأنها معرفة مكان مريم بالتحديد، مع توالي الأسئلة وضياع الإجابات المناسبة، فقدت سيلين قدرتها على المثابرة في الكذب وانهارت تماماً أمام نرجس، الوضع كان مأساويّاً كما وصفته لي نرجس، وأمكنني تخيّله من لهفة نرجس ودمعها الذي بلّل المكالمة بداية ثمّ أغرقها لاحقاً، إنّ الثبات لوقت طويل لا ينجم عنه إلا انهيار كبير في الروح والجسد.

"لا تصدّقي ما قلته لك يا آنسة نرجس، لقد كذبت عليك طيلة الوقت الذي كنت فيه صادقة معي، مريم ليست ابنة صديقتي المقرّبة، وأنا لست المرأة الوحيدة التي تبقّت لها في هذا العالم بعد موت أهلها، إنّها طفلة الرجل الذي أحببته عندما كنت طالبة في الجامعة، الطفلة التي كان من المفترض أن تكون طفلتي لولا أن حالت عدة أسباب دون ذلك، إنّني أريد رؤية مريم، أشكّ كثيراً بقدرتي على البقاء حيّة إن استمرّ غيابها عنّي أكثر، لقد طلبت من إدارة المخيّم أن يأخذوها إلى دار رعاية الأيتام، فعلت ذلك لأن مريم بحاجة إلى استكمال تعليمها، إلى رعاية أكبر من التي يمكن أن أقدّمها لها في خيمة صغيرة، إلى وجبات طعام أفضل من المعلّبات التي يرمونها لنا، أقسم لك يا آنسة نرجس! لقد فعلت

ما فعلته لأجل مريم، أنا لا أضع المبرّرات، أستحقّ بكلّ تأكيد عقاباً أكبر ممّا حصلت عليه، لكن أرجوك أخبريني ماذا كنت ستفعلين لو كنت مكاني حين قالت لي مريم: ماما سيلين أرجوك لا تتركيني!"

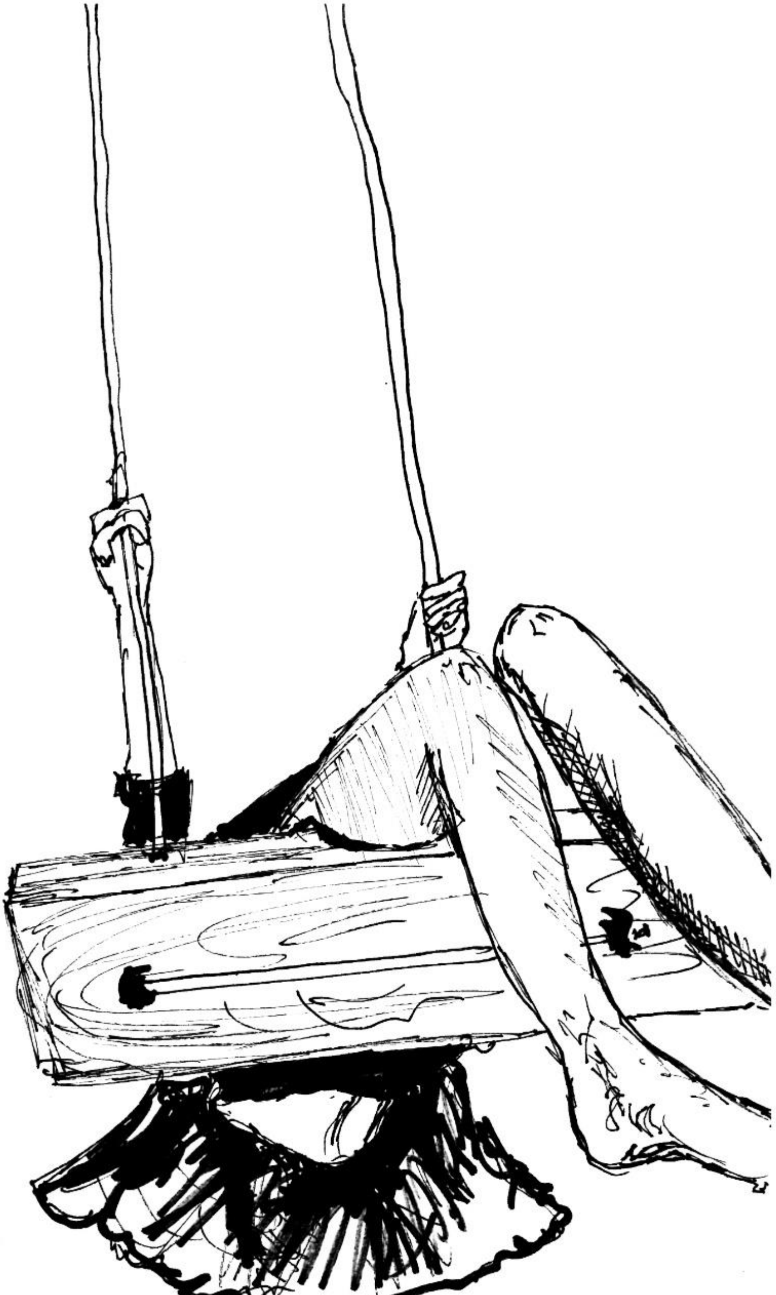

الفصل التاسع

لا أملّ النظر إلى وجه مريم، أمدّ يدي إليه، أتحسّس بشرتها لأتأكد أنّني لا أحلم، أقبّل جبينها لا جبين الصورة التي أزاحت نرجس عن عاتقها حملاً ثقيلاً بإعادتها.

إنّ الحدائق تشبه بعضها إلى حدّ كبير، ولا أقصد طبعاً الشبه من حيث أنواع الأشجار وطريقة تنسيقها أو ألوان المقاعد وأشكال البحيرات والنوافير، تتشارك الحدائق في كل أنحاء العالم لقاءات العشاق البسطاء، وزيارات المسنّين المتكرّرة، نزهات العوائل محدودة الدخل، والكثير من المشاعر التي تبدو في الحدائق العامة أكثر وضوحاً وأقلّ تعقيداً.

أشارت مريم إلى زهرة بالقرب من المقعد الذي نجلس عليه في حديقة (المئة عام) بمدينة (غازي عنتاب) التركية، تشبه إلى حد كبير الزهرة التي رأيناها قبل سنوات في حديقة (النيربن) بدمشق، قالت لي بابتهاج طال غيابه: "انظر يا أبي! إنّها زهرتنا! زهرة (مراج)!".

أسعدني قولها والابتسامة التي ارتسمت على وجهها بقدر المسافة التي تفصل بين الزهرتين، بقدر الأيّام التي مضت على إطلاقها ذلك الاسم.

نظرت في كلّ الاتجاهات، وتوقّعت كلّ ما يمكن أن يحدث وألّا يحدث، وضعت أسوء الاحتمالات، أخرجت الهاتف وأعدته إلى جيبي عشر مرات وأكثر، التقطت صوراً مع مريم، حذفت السيئة منها، سؤال مريم بين الحين والآخر كان يزيد من توتري: " بابا! متى ستأتي؟"

كنت أضع يدي اليسرى على كتف مريم، أضمّها إلى جانبي وأشدّ عليها قليلاً، أشمّ رائحة شعرها، وأمرّر أصابعي على خدّها، قبل أن تهرب كعصفور فتح له باب القفص بعد طول أسر، وتركض مسرعة بالاتجاه الذي يعاكس الاتجاه الذي كنت أنظر إليه، صارخة وهي تفتح ذراعيها بكلّ ما استطاعت من لهفة: "ماما سيلين! ".

اقتربت منّي نرجس وقادتني كالطفل الصغير الذي لم يتقن المشي بعد، لا زالت سيلين تغلق عينيها على مريم، تضمّها كما تضمّ الأم ابنها العائد من حرب عالميّة، استشعرت سيلين اقترابي منها على مهل دون أن تتأكّد من شخصي، خلعت النظّارة وبعدها القبّعة، لتتمكّن سيلين من التعرّف عليّ بسهولة وهي تجرف الدمع الذي يهطل بغزارة، مددت يدي كي أساعدها على النهوض أو المصافحة.

ما لم أتوقّعه هو أن تعانقني سيلين بشدّة العناق الذي فرّ منها حين حضرت أوّل أمسيّة شعريّة أقمتها في مدينتها، ثمّ أبعدتني عنها بعد لحظات بالشدّة التي عانقتني بها، كأنّها تذكّرت فجأة شيئاً

مهمّاً يجب عليها معرفته: "إنْ كنت قد أتيت إلى هنا لأخذ مريم فعليك أخذ روحي قبل ذلك!"

أجبت بعد أن قلّبت نظري بين الثلاثة، سيلين تحدّق بمريم، مريم تحدّق بي، ونرجس تقف حائرة في منتصف الطريق الواصل بين الحزن والفرح: "لقد أتيت لأخذك أنت ومريم!"

ما يصلح للحزن يصلح للفرح، باستبدال أحد العناصر الثلاثة: الإنسان والزمان والمكان، فالحزن في كثير من الأحيان لا يكون ضدّ الفرح ونقيضه، بل شريكه وصديقه المقرّب، حين تبدو الأمور غريبة جداً وغير متوقّعة الحدوث، يكون الاختيار بينهما أصعب من الأمر الذي يستدعيهما.

ما رأيته وقتها استرجاع للماضي الجمال كانت تراه نرجس استحضار للمستقبل، أحزنني وقوفها بعيدة، أجبرني على إغلاق باب الدمع بكلتا يدي وبكامل جسمي كلّما طرقه الموقف وهبّت عيناها لفتحه.

حقاً إنّ الأصعب من البكاء هو العجز عنه، وحدها نرجس تعرف ما أقصده، وحدها تعرف معنى العبارة التي كتبتها على حائط غرفتها ذات زيارة: "مشاهدة القطار أجمل من ركوبه".

تخيّلت ما ستفعله نرجس بعد عودتنا، ستجرّ نفسها بنفسها، وتسعى للخلود بكأس شاي تصنعه على مهل بإضافة النعنع والقرفة، تغمّس حزنها في الشاي كقطعة بسكويت وتشدّه منها

فيسقط، يتضاعف ذلك الحزن عندما تعجز عن إخراجه كتلة واحدة، ليتني استطعت الوصول إلى صندوق الأماني في رأسها لأعلم إن كانت تمنّت لو لم تلتق بي أم لا.

مشينا نحن الأربعة برفقة سؤال طرح نفسه في غير وقته: "ماذا ستقول للناس إن سألوك عن خطف سيلين لابنتك مريم؟"

سأقول لهم بكلّ بساطة: "لقد كان خطفاً رحيماً".

وهّاج الشيخ بكّور

كاتب و شاعر
من مواليد
حماة – قمحانة 1997م
طالب في كليّة الصيدلة
بجامعة البعث
تعدّ هذه الرواية باكورة
أعماله الأدبيّة المطبوعة

Al-Yanabia